روسية القيصرية والمشرق العربي

د. خيرية قاسمية

جامعة دمشق ـ قسم التاريخ

يشغل الوطن العربي مكانة هامة على الخريطة العالمية ، استراتيجيا واقتصاديا، وهذا ما جعله منذ القديم ميدان معارك وصراع دبلوماسي بين القوى الكبرى ، وخاصة في أحوال الضعف والتفكك . وفي العصر الحديث ، ومنذ ضعف الدولة المسيطرة على الوطن العربي سياسيا ، اي الدولة العثمانية ، تأثر هذا الوطن من مداخلات ومساومات الدول الاوربية الكبرى التي اشتد الصراع فيما بينها لتامين مصالحها في الدولة العثمانية ، ولتقسيم ممتلكاتها ، منذ نهاية القرن الثامن عشر ، واصبحت الاجزاء الافريقية والاسيوية من الوطن العربي موضع التنافس بين تلك الدول للحصول على النفوذ وخلق مواقع للسيطرة عن طريق التساوم والتعويض المتقابل . وتم التفاهم على اقتسام الاجزاء العربية في افريقية واحتلالها قبل الاسيوية ، وجرى ذلك تحت ظروف اقل تعقيدا .

وقد كان لمعظم الدول الغربية الكبرى في المشرق العربي العثماني مطالب متداخلة ومصالح معقدة ، واتبعت اساليب مختلفة للتدخل ، ساهمت فيها الهيئات الدبلوماسية واصحاب المصالح الاقتصادية والارساليات التبشيرية ، والبعثات العسكرية والثقافية ، لتوسيع نفوذ الدول الكبرى وتقويته ماديا ومعنويا ، ولتمهيد السبيل للاحتلال السياسي والعسكري ، وتفوقت مصالح بريطانية بسبب اعتمادها على قوتها البحرية واهتمامها بالمرور الى الهند ، وتمسكت فرنسة بادعاءاتها التقليدية في سورية ، وابدت الولايات المتحدة قدرا ملحوظا من الاهتمام الدبلوماسي والثقافي والتجاري في سواحل البحر المتوسط العربية . واخذت المانيا ، بعد ظهورها كقوة كبرى في اوربة ، باتباع « سياسة الزحف نحو المشرق » ، لتلعب دورا هاما في المنطقة عن طريق مكانتها في الدولة العثمانية . ان هذه العوامل ، التي جذبت القوى الكبرى نحو المشرق العربي العثماني وحوض البحر المتوسط ، هي

نفسها التي دفعت روسية القيصرية الى التطلع للمناطق الواقعة في جنوبها واعتبارها مجال اطماعها التوسعية . ومنذ ان حصلت روسية على منفذ الى البحر الاسود ، في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، دخلت موجة الصراع المتداخل للوصول الى البحار الدافئة عن طريق السيطرة على شرقي المتوسط . وشكلت السياسة الدينية جزءا من دبلوماسية روسية القيصرية الخارجية ، وقدمت الولايات العربية في شرقي المتوسط (سورية وفلسطين) فرصة ممتازة لاستخدام هذه السياسة ، واصطدمت بالتالي بمقاومة الدول الكبيرة الاخرى .

وحافظت الدولة العثمانية على ممتلكاتها العربية في المشرق ، لا بفضل قوتها بل بفضل تضارب مصالح الدول الكبرى وتناقض مواقفها ، الى أن جاءت الحرب العالمية الاولى لتغير موازين القوى في المنطقة ولتؤدي بالتالي الى تقهقر الوطن العربي امام التحديات الغربية العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية .

صراع القوى بين الدولتين ، العثمانية والروسية :

توافقت القرون الاربعة ، منذ ان اصبحت روسية دولة قوية في شرقي اوروبة، مع اربعة قرون من الحكم العثماني للمشرق العربي . لذا لا يمكن فهم علاقة روسية القيصرية بالمنطقة العربية الا من خلال دراسة تطور العلاقة بين الدولتين الكبيرتين ، وهي علاقة كان يحكمها اعتباران هامان :

الاعتبار الاول سياسي استراتيجي ، فبحكم التجاور كان الصدام محتما بين الدولتين ولم يتجاهل السلاطين العثمانيون ، حتى في اوج قوتهم ، ظهور روسية كقوة منافسة ، وراقبوا ببعض القلق التهديد المحتمل للمطامح الروسية . ووجدت بين الطرفين مشاكل اقليمية واقتصادية وعنصرية ودينية حددت علاقاتهما السياسية منذ البداية(١) . وفي عام ١٥٧٠ بدات المواجهة الاولى بين جيشي الدولتين وكانت سابقة لصدامات تالية . وتكررت حالات الحرب بين الدولتين في عهد اسرة رومانوف (١٦١٣ ــ ١٩١٧) بحيث بدت وكأنها تسيطر على مجمل العلاقات بينهما . وكانت حرب القرم (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) مثلا كلاسيكيا على ذلك ، رغم ان روسية اتبعت في بعض الاحيان سبيلا اخر ، هو دعم الدولة العثمانية (كما حدث في عامي ١٧٩٨ و ١٨٣٣) ، بأمل الحصول على نفوذ غير مباشر في الدولة العثمانية ، من خلال التحالف ، وليس العداء .

ويعود جوهر الصراع بين الدولتين الى محاولات روسية منذ القرن السابع عشر دفع حدودها باتجاه الشرق والجنوب للخروج من وضع الدولة القارية البرية،

اي الوضع الذي أملته الشروط الطبيعية . وقد ركز قياصرة روسية ، بعد بطرس الاكبر (١٦٨٢ ــ ١٧٢٥) ، جهودهم على الطريق البحري الجنوبي (آزوف ــ البحر الاسود ــ المتوسط) ، الذي يؤمن مياها دافئة مفتوحة طوال العام . ونظرا لان الدولة العثمانية كانت تسيطر استراتيجيا على منفذ روسية الوحيد نحو البحر المتوسط عبر المضائق ، التي وصفها نقولا الاول (١٨٢٥ ــ ١٨٥٥) بأنها « بوابات بيتنا » ، اصبح الشغل الشاغل لسياسة روسية الخارجية تأمين المرور الحر غير المعوق عبر البوسفور والدردنيل(٢) . وهيأت روسية بذلك المسرح « للمسألة الشرقية » ولدور الدولة العثمانية كرجل اوروبة المريض في القرن التاسععشر(٣) .

كان يمكن في كثير الاحيان حسم الصراع ، لو انه اقتصر على الدولتين ذاتي العلاقة . الا انه بعد توسع روسية ، منذ نهاية القرن الثامن عشر ، اخذ هذا الصراع يشكل خطرا على مصالح الدول الاوربية الكبرى ، التي راقبت ، باهتمام شديد ، كل سعي توسعي من جانب روسية لمواجهته عند الضرورة(٤) . وتدخلت انجلترة في كثير من الاحيان بالنيابة عن اوربة لحفظ توازن القوى في المشرق العثماني ، الذي يعني دعم وجود الدولة العثمانية والدفاع عن سلامة اراضيها وعن اشرافها الفعال على المضائق . ونجحت انجلترة بسبب تفوقها البحري في شرقي المتوسط ، في حصر روسية داخل البحر الاسود وفي اغلاق المضائق في وجهها ، كما ارغمتها على التخلي عن مكتسباتها الاقليمية . وعن دعاويها « بتحرير القسطنطينية » . ولقد فكر موجهو الاستراتيجية الروسية في بعض الاحيان ، بالتخلي عن هدف المضائق والتوجه جنوبا عبر القفقاس نحو الموانى الدافئة على الخليج العربي ، فسعوا الى قهر الامبراطورية الايرانية ليتمكنوا من الاشراف المباشر على الخليج ، وهو امر لم تكن انجلترة لتسمح به لانه يتحدى مركزها في الهند(٥) . واصبح الخيار الوحيد امام روسية للتوسع الاقليمي هو التطلع نحو اوربا الوسطى والبلقان او نحو الصين واليابان . وخلال سنوات الصراع بين روسية والدولة العثمانية لم يكن المشرق العربي هدفا بحد ذاته بل اكان يدخل في اطار استراتيجيتها كدولة كبرى .

الاعتبار الثاني ديني ، فالسيطرة على المضائق كانت تحمل معنى اخر اكثر من الاهمية الاستراتيجية ، هو زعامة روسية لقضية الكنيسة الارثوذكسية(٦) . فقد كان من العوامل الهامة التي دفعت روسية الى التطلع نحو الدولة العثمانية كون الاخيرة دولة اسلامية تحكم شعوبا مسيحية(٧) ، توضعت في رقعة جغرافية هي مركز الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية ، التي تعتبر روسية نفسها وريثة لها . وبذلك لعب الشعور الديني ، بالاضافة الى العامل الاستراتيجي ، دورا رئيسيا في صياغة العمل والفكر السياسيين لدولة روسية القيصرية تجاه الدولةالعثمانية(٨)

وكانت الكنيسة الارثوذكسية الروسية قد نشأت في ظل امبراطورية بيزنطة ، وخضعت منذ القرن العاشر الميلادي ، أي منذ أن عمد امير موسكو في القسطنطينية ، لسلطة البطريرك « المسكوني » في عاصمة بيزنطة . وكان معظم رجال الدين في الكنيسة الروسية من اليونانيين المعجبين ببيزنطة ، وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية استقلت الكنيسة الروسية عمليا ، ووجد رجال الدين اليونانيون داخل الكنيسة الروسية في امراء روسية الاقوياء حماة للعقيدة الارثوذكسية وورثة للامبراطورية البيزنطية . واعتبرت موسكو بعد انشاء بطريركيتها ١٥٨٩ « روما ثالثة »(٨) ، وورثت الكنيسة الروسية مظاهر الطقوس البيزنطية ، تماما كما ورث البلاط الروسي مظاهر البلاط البيزنطي ، واصبح « ارث بيزنطة » بذلك مسألة اساسية بالنسبة لتطور الدولة الروسية(٩) .

وبالرغم من المكانة التي احتلها القيصر في العالم الارثوذكسي ، حافظ البطريرك المسكوني في الاستانة ـ وهو يوناني ـ على زعامته للكنيسة الارثوذكسية (١٠) . وقد اقتنع الروس في بادىء الامر بهذا الوضع على امل الافادة من مكانة البطريرك المسكوني الخاصة لدى الدوائر الحاكمة العثمانية(١١) ، ولكن مع تردي العلاقات الروسية ـ العثمانية ، اخذت الشكوك تساور الروس من سيطرة رجال الدين على « الحضرة » البطربركية في الاستانة (القسطنطينية) بالاضافة الى كل توابعها . واصبح الاستيلاء على البطريركية « المسكونية » بالنسبة لروسية مطمحا هاما ، لان ذلك يخدم سياستها بشأن الجامعة السلافية والجامعة الارثوذكسية ويمنحها السلطة الدينية على الكنائس المستقلة ذاتيا ونستطيع بفضل قوتها ان تحول تلك السلطة الى سلطة مادية تخولها التدخل في الشؤون الداخلية للدول الارثوذكسية »(١٢) . ولذا عمل رجال الدين اليونانيون في ابرشيات الاستانة على مقاومة مطامع روسية ، واصبح هناك نوع من التحالف الخفي بين الاتراك العثمانيين ورجال الدين اليونانيين ، وتمسكت السلطات العثمانية برجال الدين هؤلاء لمواجهة ادعاءات روسية بحلول الاكليركية الروسية محل اليونانية بحيث تصبح السيدة العليا للارثوذكسية ،وتشكل بالتالي دولة داخل دولة ، في حين كان رجال الدين اليونانيون يصبحون رعايا عثمانيين مجرد دخولهم في خدمة الابرشيات العثمانية(١٣) .

الا ان الاراضي المقدسة ، التي ترتبط مواقعها بالكتاب المقدس ، ظلت هي الاقرب الى قلب الشعب الروسي المؤمن من « البطريركية المسكونية » ، نظرا لتعلق الروس العاطفي بالاراضي المقدسة . وقد تدفق آلاف الحجاج من الفلاحين الروس البسطاء نحو الاراضي المقدسة ، كغيرهم من حجاج اوروبة ، حتى قبل تأسيس الدولة الروسية الحديثة(١٤) . وحتى نهاية القرن الثامن عشر لم يرافق

ذلك اهتمام روسي رسمي واضح في المشرق العربي ، او حتى في فلسطين كأرض مقدسة . وكان الدعم المادي الروسي المحدود للكنائس الارثوذكسية في بطريركيات الشرق هو التعبير الوحيد الذي تمارسه روسية في تعاطفها مع مسيحيي الشرق الارثوذكسي . ومنذ مطلع القرن التاسع عشر سعت الدبلوماسية الروسية لاستخدام السياسة الكنسية في سورية - وفلسطين بشكل خاص - لارساء نوع من الوجود الروسي الارثوذكسي ، ولدعم مصالح روسية كدولة كبرى في شرقي المتوسط(١٥) .

٢ - الشواغل الروسية المبكرة بالمشرق العربي حتى نهاية القرن الثامن عشر :

حين تصادمت مصالح الدولتين العثمانية والروسية منذ نهاية القرن السادس عشر ، لم يدخل المشرق العربي في اطار موجة التوسع الروسي . هذا مع ان الاراضي المقدسة كانت تحتل مكانا متميزا في التفكير الروسي الديني ؛ كما ان بطاركة المشرق الارثوذكسي بدأوا يتجهون بانظارهم نحو موسكو منذ ان اخذت تظهر بمظهر الدولة الكبيرة ، وبخاصة لطلب المعونة المادية(١٦) ، وكان يقابل ذلك زيارة عدد من الروس للبلاد المقدسة . والاقامة مدة في سورية لدراسة الطقوس الشرقية الارثوذكسية والمقابلة بينها وبين الطقوس « المسكوبية » . وقد قام بطريركا القدس وانطاكية (اليونانيان) بدور هام في تطور الكنيسة الروسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكانت الهبات الروسية هي المصدر الرئيسي لدخل البطريركيتين دون ان تحاول روسية ممارسة اي نوع من النفوذ والتأثير على اعمالهما . ويمكن اعتبار معاهدة (كارلوتز Carlovitz ١٦٩٩) بداية تحول في سياسة الحكومة الروسية تجاه الشرق الارثوذكسي ، فقد اصر بطرس الاكبر على اضافة القضايا الدينية الى جدول اعمال مؤتمر الصلح ، ومنح السلطان العثماني ضمانات محددة للحجاج الروس المتوجهين الى الاراضي المقدسة(١٧) .

وقد ادى تصاعد العداء بين روسية والدولة العثمانية في القرن الثامن عشر الى تردد السلطة الاكليركية اليونانية ، التي بلغت مركزا متميزا في الاستانة ، في ابقاء الصلة الوثيقة مع القيصر خشية اثارة استياء السلطان(١٨) . ومع ذلك استمر الحجاج الروس بزيارة الاراضي المقدسة ، واستمر الدعم الروسي المادي للكنائس الارثوذكسية في بطريركيتي القدس وانطاكية ، ولكن هذا الدعم لم يسنده او يرافقه ، اهتمام بالعقيدة الارثوذكسية بين العرب المسيحيين ، او مواجهة النشاطات الارسالية الاجنبية، او الاشراف على طرق استخدام المعونات الروسية ،وظلت بيد الاكليركية اليونانية التي اثبتت عدم كفاءتها وفسادها ، واستئثارها وطمعها

وعدم اهتمامها بمصالح العرب الارثوذكس ، كفتح المدارس وبناء الكنائس(١٨) . ولم يمنع هذا الوضع المبعوث الروسي لدى الباب العالي من تقديم الاحتجاج مرارا بسبب الانتهاكات الكاثوليكية لحقوق الارثوذكس ، وكررت روسية تحذيراتها من المصاعب التي يلاقيها حجاجها في الاراضي المقدسة ، لعدم وجود حماية لهم فيها(١٩)

وقد اصبح الساحل السوري حقل صراع بين روسية والدولة العثمانية في سبعينات القرن الثامن عشر . ولم يكن ذلك لاسباب دينية ، بل لان شرقي المتوسط غدا منطقة مجابهة بحرية خلال مرحلة هامة من الحرب الروسية العثمانية، ففي حزيران ١٧٧٢ تقدمت بعض القطع البحرية الروسية ، بعد ضرب القوات العثمانية في معركة تشسينا ، لدعم علي بك المملوكي الذي انفصل عن الدولة العثمانية واستقل بمصر وضاهر العمر الذي بسط سيطرته على معظم فلسطين في ثورتهما ضد السلطان ، وتمكنت من محاصرة ميناء صيدا وطرد الاسطول العثماني منه ، ثم تقدمت على طول الساحل وبلغت ميناء بيروت وحطمت السفن العثمانية الراسية فيه(٢٠) . وعادت القطع البحرية الروسية ، من قاعدتها في جزيرة باروس ، الى بيروت في اذار ١٧٧٣ وذلك لمساعدة الامير يوسف الشهابي ، احد زعماء جبل لبنان المتنفذين ، بعد خلافه مع احمد الجزار ، الذي كان يتولى حماية بيروت على راس مجموعة من الجند العثماني ، وضربت السفن الروسية المدينة وصدعت أسوارها ، وظلت بيروت تحت السيطرة الروسية من تشرين اول ١٧٧٣ حتى شباط ١٧٧٤(٢١) . وقد سمحت معاهدة كوتشوك كينارجه Kucuk Kaynarja ١٧٧٤ بانشاء كنيسة ارثوذكسية جديدة في الاستانة ، يتولى تمثيلها دبلوماسيا المبعوث الروسي لدى الباب العالي ، وعلى أساس هذا الشرط المحدد حاولت الدبلوماسية الروسية فيما بعد الادعاء بالحماية الفعلية على الكنيسة الارثوذكسية بكاملها في الدولة العثمانية(٢٢) . والملاحظ ان الحكومة الروسية لم تتمسك في مطالبها الاقليمية ، بالساحل السوري ، رغم ان دعم الثورة المحلية فيه ، واحتلال بيروت قد ساهما الى حد ما في هزيمة الدولة العثمانية ، فقد كان هدف كاترين موجها نحو الاستانة والمضائق ، ولم يبرز الاهتمام بالمشرق العربي الا في القرن التالي.

٣ ـ تزايد الاهتمام الروسي بالمشرق العربي في النصف الاول من القرن التاسع عشر :

تضافرت عدة عوامل منذ اوائل القرن التاسع عشر لازدياد التأثير الروسي في الدولة العثمانية وبالتالي لتمهيد الطريق للتغلغل الروسي في سورية ـ فلسطين . هذه العوامل هي : الثورة اليونانية ضد الحكم العثماني ١٨٢١ ـ ١٨٢٥ ودعم روسية

للثوار بحجة حماية المسيحية الارثوذكسية ، والحرب الروسية التركية ١٨٢٨ ـ ١٨٢٩ ، وهي التي انتهت بارغام الدولة العثمانية في معاهدة ادرنه على قبول المطلب الروسي بحماية المسيحيين الارثوذكس في الولايات العثمانية واقرار الدولة العثمانية بفتح المضائق للشعوب الصديقة ، وتقدم جيش محمد علي في سورية وما اعقبه من عقد تحالف دفاعي بين الدولتين في تموز ١٨٣٣ ، (معاهدة هنكار اسكله سي Hunkar Iskelesi ، التي خولت روسية وضعا متميزا في تقرير سياسة الدولة العثمانية الخارجية لانها منحتها الحق بافضلية التدخل في المضائق (٢٣) ، وهو الامر الذي اثار قلق الدبلوماسية الاوربية الحريصة على التوازن في المنطقة . فسعت الى سلب روسية ثمار انتصارها .

وقد شهدت فترة حكم ابراهيم باشا في سورية ـ فلسطين تدفقا هائلا للارساليات الكاثوليكية والبروتستنتيه التي تسابقت في مجالات النشاط الديني والثقافي (فتح المدارس ، انشاء المطابع ، نشر الكتب وخاصة الكتب المقدسة)(٢٤) . وظهرت انجلترة وبروسية على مسرح المشرق العربي لاول مرة لتمثيل المصالح البروتستنتية ، تماما كما كانت فرنسة تمثل المصالح الكاثوليكية ، وانضمت الولايات المتحدة اليهما في لعبة « الاستعمار الانجيلي » وكان الاهتمام الديني احد جوانب المطامح الاوربية التجارية والسياسية في شرقي المتوسط والمتركز على سورية ـ فلسطين(٢٥) . ونشط الدبلوماسيون الاوربيون في المشرق العربي لتعزيز نفوذ الدول الاوربية ، واصبحت فلسطين في تلك الفترة مقرا لعدد كبير من ممثلي الدول الكبرى من رجال الدين او الدبلوماسيين(٢٦) . وكانت النتيجة الطبيعية هي الصراع من اجل السيطرة والنفوذ ، وبدأت حجة حماية الاماكن المقدسة والحجاج اكبر ضمان لتحقيق الفوز .

اخذت روسية ترقب بحذر اعمال الدبلوماسيين الاوربيين في المشرق العربي وسعت لتعزيز مواقعها لمواجهة نفوذ الدول الاوربية في المنطقة فارتأت ، اولا ، ضرورة تقوية التمثيل الدبلوماسي في سورية وفلسطين ، وكانت الخدمات القنصلية الروسية قد بدأت منذ عام ١٨٢٠ في يافا (اهم ميناء لاستقبال الحجاج الروس) ثم في حلب ، واللاذقية وبيروت ، وصيدا ، (وجميعها كانت تتبع لقنصلية الاسكندرية) . وفي عام ١٨٣٩ نقلت قنصلية يافا الى بيروت واصبحت بذلك القنصلية الروسية الاولى في سورية ، وتشمل صلاحياتها فلسطين بكاملها . وشغل منصب القنصلية (بازيلي) ، وهو روسي من عائلة يونانية في الاستانة وعلى معرفة واسعة بالاوضاع المحلية ، وعين وكيل قنصل له في القدس(٢٧).

سعت الدبلوماسية الروسية ، ثانيا ، الى تعزيز توجهاتها من خلال الدين(٢٨)، واعتمد المخططون والمنفذون لسياسة روسية الخارجية في المشرق العربي على الشعور الديني التقليدي لدى الشعب الروسي ، الذي كان يمجد رسالة روسية المسيحية في العالم المسيحي بوجه عام . ولم يكن صدفة ازدياد عدد الحجاج الروس الى الاراضي المقدسة منذ ثلاثينات القرن الماضي ، كذلك ازدياد الهبات المالية والتزيينات المرسلة الى الكنائس الارثوذكسية في الشرق . وكانت تلك الكنائس قد عانت خسارة فائقة في دخلها بعد الثورة اليونانية .ووجدت الدولة الارثوذكسية الكبرى في هذا الوضع فرصة لاظهار كرمها وزيادة دعمها المادي(٢٩) .

وخلال بروز مسألة التدخل الاوروبي بكل دوافعها الخفية في سورية عام ١٨٣٨ وزيادة النشاط الكاثوليكي والبروتستنتي في المنطقة ، وجدت الحكومة الروسية الارثوذكسية ، واثر تراجع مركز روسية الدبلوماسي ، وجدت الحكومة الروسية والمجمع المقدس الروسي Synod ضرورة تبني سياسة مشابهة لسياسة منافسيهم الغربيين (٣٠) . وفي عام ١٨٣٨ قدم فلسطين (مورافييف Muraviev) احد اعضاء المجلس الاستشاري في المجمع المقدس ، وكان يعمل من موقعه على الدعوة الى الاهتمام بالاراضي المقدسة وشؤون الحجاج الروس . واقترح (مورافييف) في كتاب مفصل قدمه الى القيصر ، ان يمارس القيصر حماية خاصة على الاماكن المقدسة الارثوذكسية (ولكن ليس على السكان الارثوذكس) ، وان تنشأ ارسالية في القدس تكون مركز نشاط ديني ودبلوماسي تدعمها ماديا معونات روسية . ولم تقم وزارة الخارجية الروسية بانشاء الارسالية ، الا انها تدخلت لدى السلطات العثمانية لوضع حد للنزاع حول الاماكن المقدسة وحماية الحجاج ، واصدرت تعليماتها الى (بازيلي) ،القنصل العام في بيروت ، والخبير بالقضايا المحلية ، بتوطيد صلاته مع السلطات الكنسية في سورية وفلسطين . والاهتمام بمصالح الكنيسة الشرقية ، واوكلت اليه مهمة اعادة تجديد ديرين يونانيين (سان كاترين في سيناء وسان تيودور في القدس) ، لاستخدامهما كداري ضيافة للحجاج الروس تحت رعاية الاكليركية اليونانية(٣١) .

واثارت نشاطات القنصل الروسي العام مخاوف القنصل البريطاني في القدس وشغلت حيزا كبيرا من مراسلاته ، ومن مراسلات السفير البريطاني ، في الاستانة . ولخصت هذه المراسلات هدف روسية بانه اخضاع الكنائس الشرقية ووضع المسيحيين الشرقيين تحت حمايتها ، ومناهضة عمل الارساليات الاجنبية ، هذا مع أن الكنيسة الروسية لم يكن باستطاعتها ممارسة اي نفوذ على الاكليركية اليونانية .

ويمكن القول انه في مطلع الاربعينات اخذت العناصر القوية في دوائرالخارجية، او المجمع المقدس في روسية ، تبدي اهتماما بالاراضي المقدسة ، ولم تعد افواج الحجاج تشمل الفلاحين البسطاء وخدمهم بل اصبح من بينهم عدد من النبلاء والجنود والبحارة ورجال الدين والادباء (٣٣) ، واصبحت الدوائر الحكوميةوالكنسية اكثر استجابة لتوصيات ومقترحات الحجاج المتنورين وغيرهم ،الذين رغبوا باحياء العقيدة الارثوذكسية في الاراضي المقدسة وبالاشراف الروسي على انفاق الاموال الروسية ، لوضع حد لفساد الاكليركية اليونانية وعدم كفاءتها في هذا المجال ، كما طالبوا بالوقوف في وجه مساعي الدول الاخرى لكسب التفوق ، مع ذلك لم تكن هناك سياسة ثابتة ، ولم تكن وزارة الخارجية سوى قناة لايصال الهبات المادية الى فلسطين .

ولم يقتصر الاهتمام الروسي على الاراضي المقدسة ، بل اصبح هناك اهتمام بالعرب وحضارتهم بشكل عام ، ونشطت حركة الاستشراق(٣٤) في الاوساط العلمية ، وعمل الرحالة العلماء الذين زاروا الشرق على تعزيز علاقة روسيةبالمنطقة العربية وزيادة التعرف عليها ، ومن هؤلاء (كافالفسكي) مهندس المناجم الذي وضع كتابا عن مصر والسودان ، وكان محمد علي قد استدعاه على راس بعثة استكشاف الى شرقي السودان فعثر على مناجم الذهب وكشف عن بعض منابع النيل(٣٥) .

وبعد ابرام معاهدة لندن ١٨٤٠ ، وانفتاح باب واسع لنفوذ الدول الكبرى ونشاطات ارسالياتها في سورية وفلسطين(٣٦) ، وقع حادثان لفتا انظار الحكومة الروسية الى ضرورة مواجهة نشاط البروتستنتية والكاثوليكية من اجل تعزيز مكانة روسية في المنطقة ، الاول ، هو انشاء الاسقفية البروتستنتية في القدس ١٨٤١ (٣٧) ، بمبادرة بروسية وانجليزية ، والتي عززت النشاط البروتستنتي في المشرق كله ودعمت النفوذين الانجليزي والبروسي ، والثاني ، هو اصدار البابا بيوس التاسع اذنا باعادة انشاء البطريركية اللاتينية في القدس ١٨٤٧ في محاولة من الكنيسة الكاثوليكية لاسترجاع مكانتها في الاراضي المقدسة(٣٨) .

وقد اصبح (نسلرود) ، وزير الخارجية الروسي ، اكثر اقتناعا بضرورة استخدام الكنيسة الارثوذكسية لاغراض سياسية بحته(٣٩) ، وكان قد تقدم منذ ١٨٤١ بمذكرة الى المجمع المقدس وضع فيها اسس سياسة ارثوذكسية اكثر فعالية اكد فيها على اهمية انتقال بطريرك القدس اليوناني من الاستانة الى القدس للعناية برعاياه(٤٠) ، وبين الحاجة الى وجود ارسالية روسية في الاراضي المقدسة ،

تتبع رجال الدين اليونان ويساعدهم رجال الدين الروس . ومهام الارسالية ، بنظره تتيح لها التدخل في قضايا الكنيسة « اليونانية » نظرا لطبيعتها الدينية ، والاشراف على المعونات التي تأتي من روسية .

قررت وزارة الخارجية ، قبل تنفيذ توصيات (نسلرود) ، القيام بتفحص شؤون الشرق « المسيحي » عن قرب ، ولم يعهد بالمهمة الى دبلوماسي بل الى احد رجال الدين المثقفين العارفين بالمنطقة ، ووقع الاختيار على ارشمندريت هو (بورفيري او سبنسكي Porfiri Uspinski (٤١) ، وكان مسؤولا امام وزارة الخارجية وهي التي صاغت له مهمته ، وتتلخص في التعرف على اوضاع الكنيسة الارثوذكسية في الشرق وكسب ود المواطنين الارثوذكس والتحقق من حاجات الطائفة الارثوذكسية(٤٢) . وكانت اهم النتائج التي توصل اليها (اوسبنسكي) في جولته (١٨٤٣ ــ ١٨٤٤) هو تدني مستوى الاكليركية اليونانية من جهة ، والتعاطف مع الاغلبية المحلية من رجال الدين والعامة الارثوذكس(٤٣) .

وقد اثار (اوسبنسكي) في جولته شكوك رجال الدين اليونان لانه تدخل في عملية انتخاب بطريرك القدس الجديد ، وكان العرف يخول بطريرك القدس المقيم في الاستانة تحت حماية البطريرك المسكوني حق تعيين خلف له ، الا انه تقرر عندئذ بتأثير النفوذ الروسي ان يجري الانتخاب في القدس من قبل « اخوة القبر المقدس » ومع ان البطريرك الجديد (اكيرلس) كان يونانيا ، ولم يعقب انتخابه اي تفوق روسي الا ان عام ١٨٤٤ كان يمثل بداية النزاع بين العرب واليونان من اجل الحصول على مشاركة اوسع في شؤون البطريركية ووضع حد لتفوق الاكليركية اليونانية ، هذا النزاع الذي سيزداد حدة ووضوحا مع نمو الشعور القومي وازدياد التباعد عن الطبقة الدينية اليونانية(٤٤) ، وسيصبح قضية عامة تصدق على معظم الشرق العربي وليس فلسطين وحدها .

وقدم (اوسبنسكي) في المذكرة التي رفعها الى السفير الروسي في الاستانة ، مقترحات عملية من اجل التدخل الروسي الفعال في كنيسة القدس الارثوذكسية اهمها : ارسال مجموعة من رجال الدين الروس المثقفين برئاسة اسقف ، واقامة مدرسة روسية لتعليم ابناء البلاد ، ولتعليم رجال الدين الروس اللغة العربية لترجمة الكتب الروسية وتوزيعها على المواطنين الارثوذكس في سورية وفلسطين ومصر ، وانشاء مراكز روسية خيرية تتيح لرجال الدين الروس كسب السكان المحليين(٤٦) وطبقا لمذكرة (اوسبنسكي) فان هذه المهام هي نواة الارسالية الروسية التي سيتركز نشاطها في القدس ، نظرا لاهميتها الحساسة ، وليس في الاستانة اوبيروت

وبمعنى آخر فان هذه المقترحات تبدو وكأنها رسمت لايجاد نظائر ارثوذكسية روسية للمؤسسات البروتستنتية والكاثوليكية العاملة في الشرق ، او على الاقل لكبح نموها . وكان على روسية ان تقدم على مباراة الدول الاوربية(٤٧) لتأييد مركزها في الشرق .

وقد اخذت وزارة الخارجية الروسية مذكرة (اوسبنسكي) بعين الاعتبار على ضوء التقارير الدبلوماسية التي اكدت ، من جهة - فقدان الاكليركية اليونانية تاثيرها على المواطنين العرب لجهلها وعدم اهتمامها ، وكشفت ، من جهة اخرى ، عن استخدام الارساليات الاجنبية ، البروتستنتية والكاثوليكية على السواء ، كل اساليب الاغراء لتحويل المواطنين الارثوذكس عن العقيدة الارثوذكسية(٤٨) ، وهو الامر الذي اثار مرارا احتجاج وكلاء روسية الدبلوماسيين(٤٩) ، كما دفع بطريركية انطاكية الى ارسال وفد الى روسية لطلب الدعم المادي والمعنوي من اجل مواجهة اخطار الارساليات الكاثوليكية والبروتستنتية(٥٠) وهكذا اصبح مستقبل تأسيس ارسالية دينية بيد الدبلوماسية الروسية ولم يكن (نسلرود) ارساليا ، بل كانت أهدافه الاوسع سياسية ، أي تعزيز النفوذ الروسي وكسب تعاطف الارثوذكس المواطنين ومنافسة او احباط الخطط الفرنسية والبريطانية ، وفي عام ١٨٤٧ اتخذت وزارة الخارجية الروسية قرارها بايفاد ارسالية دينية الى الاراضي المقدسة ، رسمت سياسة روسية الجديدة تجاه « الشرق الارثوذكسي » .

وقد عهدت السلطات الحكومية الروسية الى (اوسبنسكي) ، نظرا لتجربته ومعرفته الواسعتين ، مهمة رئاسة الارسالية الدينية التي وصلت القدس في ١٨ شباط ١٨٤٨ واعتبر اوسبنسكي نفسه وكيلا دبلوماسيا للامبراطورية الروسية ، ووضع في خططه العملية ، التي لم تتحقق جميعا ، الاساس لسياسة المستقبل(٥١) وتجاوز القيود التي فرضتها وزارة الخارجية ، وتنقل بين الاديرة المجاورة واجرى بحوثا في المكتبات ، وعمل في الوثائق والمخطوطات واودع بعضها في سان بطرسبرغ . وباموال روسية اشترت بطريركية القدس عدة مواقع في القدس وما جاورها (كثير من هذه المواقع اختارها اوسبنسكي لعلاقتها بالكتاب المقدس) ، وقد تم الشراء باسم رعايا عثمانيين(٥٢) . واستطاعت الارسالية الروسية ، رغم قصر فترةنشاطها (١٨٤٨ – ١٨٥٤) ، من وضع سابقة للنشاطات الروسية المقبلة الاكثر فعالية بعد حرب القرم وخاصة في مجال العمل الثقافي الروسي في فلسطين وفي الشرق الارثوذكسي الذي ازدهر في نهاية القرن(٥٣) . ولكنها فشلت في المهمة التي حددتها وزارة الخارجية باعلاء هيبة كنيسة القدس واصلاح احوال رجال الدين الذين يتولون الاشراف على المسيحيين الارثوذكس في الشرق ، وتعزيز مكانة الكنيسة الروسية والحكومة الروسية في نظر المسيحيين الشرقيين . كذلك لم يتوصل (اوسبنسكي)

الى حل مسألة الاشراف على رعاية الحجاج الروس وانفاق الهبات الروسية التي ظلت بيد الاكليركية اليونانية رغم الشكاوي المتكررة(٥٤) . وقد استطاع اوسبنسكي منذ زيارته الاستطلاعية قبل اربع سنوات ، كشف خفايا البطريركية في القدس ، وخاصة ظاهرة تغلب العنصر اليوناني على طبقة رجال الدين وعلى اخوة القبرالمقدس مع ان غالبية سكان الابرشيات هم من العرب الارثوذكس (٥٥) . وشعر (اوسبنسكي) بتعاطف خاص نحوهم ، وساءه اهمال تعلمهم وعمل جهودا خاصة بالتعاون مع بطريرك القدس كيرلس الثاني ، لاصلاح مدرسة البطريركية وانشاء معهد لاهوتي لتدريب رجال الدين ، وتأسيس دار طباعة صغيرة اخرجت بعض الكتب الدينية بالعربية لتوزيعها على الكنائس والمدارس . وقدم المعونة المادية لرجال الدين العرب من اموال الارسالية ، وعين بعضهم في مناصب دينية في المناطق النائية(٥٦) . وساعد (اوسبنسكي) بذلك على تغذية الشعور العربي المتميز لدى الارثوذكس العرب ، والذي بلغ في النهاية مرحلة التباعد النهائي عن الاكليركية اليونانية . وربما كان هذا اعظم ما حققته الارسالية الروسية الاولى في القدس .

٤ ـ روسية القيصرية تعيد النظر في سياستها في الشرق الارثوذكسي بعد هزيمة القرم :

أدى تنافس الدول الكبرى ، واختلاف مواقفهم من الدولة العثمانية الى تفجر حرب القرم ١٨٥٣ ـ ١٨٥٦ ، ولم يكن النزاع بين رجال الدين الارثوذكس والكاثوليك حول الاماكن المقدسة في فلسطين ، سوى المبرر العلني لكشف هذا التنافس ، وهو الامر الذي زاد مرارة المواجهة السياسية بين الدولتين الحاميتين لكل من الكنيسة الارثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية . وربما كان التزعم الروسي لقضية الكنيسة الارثوذكسية هو الذي دفع دولتي الغرب الاوربي ، فرنسة وانجلترة الوقوف مع الدولة العثمانية . ووفقا لمعاهدة باريس ١٨٥٦ اغلق الطريق في وجه روسية الى الاستانة عبر اوروبة ، كما حرمت من دعواها كحامية للمسيحيين في الدولة العثمانية (٥٧) .

وقد اساءت الهزيمة العسكرية الى هيبة روسية كقوة حربية ، والى دورها في العلاقات الدولية ،كما وجهت ضربة قوية لمكانتها في « الشرق الارثوذكسي » ، وطرحت عدة اقتراحات لاستعادة مركز روسية المتفوق في الدولة العثمانية ، منها تأسيس جمعية فلسطينية ، واكاديمية شرقية في اوديسا لتدريب الطلاب للعمل في الشرق ، وارساليات في اثينا والاستانة ومصر . ولاقى اقتراح تجديد ارسالية

القدس تأييدا كبيرا بعد ان وضعت حرب القرم نهاية لارسالية اوسبنسكي واوصى « المجمع المقدس » تعيين الاسقف سيريل نوموف Naumov لهذه المهمة ، وهو اول مبعوث روسي للشرق العربي الارثوذكسي . وحدد وزير الخارجية غورتشاكوف Gorchakov في تقريره الى القيصر (٥٨) ، مهمة الارسالية بأنه ترسيخ النفوذ الروسي في الشرق من خلال الكنيسة ، حتى لاتتراجع مكانة روسية بنظر الارثوذكس الذين لازالوا يتطلعون الى روسية . واكد التقرير على الدعم الذي يجب ان يقدم للعرب الارثوذكس ، وهذا يمثل تغيرا في تفكير روسية الدبلوماسي ، فقد نقلت الاهتمام من رجال الدين اليونان الى العرب الارثوذكس لتعلي هيبتها في نظرهم ولتمنع تحولهم عن العقيدة الارثوذكسية ، وكان غورتشاكوف اكثر تصميما من سلفه لتأكيد الوجود الروسي في القدس واقل حرصا على مراعاة الاكليركية اليونانية (٥٩) وتبنى بذلك مبدأ اوسبنسكي بجعل الافضلية في المساعدة الروسية للارثوذكس العرب . وركزت تعليمات القيصر الى الاسقف نوموف على ضرورة الاهتمام « برجال الدين البائسين » لاستمالتهم ، ومنحهم فرصة تلقي العلم في روسية . وعهد اليه بتوسيع نفوذه الى بطريركتي الاسكندرية وانطاكية ، وكلف بتجديد المدارس في الثانية ، واكمال بناء المدارس اليونانية والعربية في بطريركية القدس ، وتوزيع الكتب والهبات وانشاء مطبعة عربية لنشر الكتب العربية ، هذا بالاضافة الى رعاية شؤون الحجاج الروس ، واقامة شعائر دينية مهيبة في الاماكن المقدسة (٦٠) وفي عام ١٨٥٨ صدر مرسوم القيصر بانشاء الارسالية ، وكانت بصورتها الثانية مظهرا جديدا في تاريخ العلاقات الروسية مع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية .

وكان في روسية من يعتقد بأن اعادة مكانة روسية في الشرق الارثوذكسي وتعزيزها أمر لايمكن تحقيقه بوسائل الارسالية المتواضعة ، ذلك ان هزيمة القرم لم تحبط فقط الاهداف الروسية ، بل هددت نشاط روسية في البحر الاسود ، ولتعويض هذه الخسارة عمل الدوق الاكبر كونستانتين على توسيع البحرية الروسية التجارية بانشاء « الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة » . Russian Company of steam navigation and trade التي تتمتع برعاية امبراطورية وتدعمها الحكومة ماديا ، وانشئت لغرض سياسي اكثر من الربح التجاري ، ووضعت خطة لافتتاح خط ملاحي بين اوديسا والمواني السورية هدفه الرئيسي نقل الحجاج(٦١) وقبل ان تصل الارسالية الروسية الدينية الثانية الى فلسطين بعث الدوق كونستانتين في عام ١٨٥٧ بوريس منصوروف Boris Mansurov كممثل للشركة لتقصي الاوضاع في الشرق ودراسة امكانيات العمل . وطبع منصوروف تقريره في كتاب عنوانه « الحجاج الارثوذكس الى فلسطين » ، اصبح دليلا للاراضي المقدسة

وأكد تقرير منصوروف تقارير القناصل الدبلوماسيين ونتائج اوسبسنكي ، حول الحاجة الى عمل روسي اكثر فعالية ، بعد ان اصحبت سورية ـ فلسطين ارض صراع للمطامح الاوربية ، غابت عنها روسية تماما ، حيث تعمل البعثات الدبلوماسية الغربية على تقديم المساعدة المادية والحماية السياسية لمسيحي الشرق مما يدفع الارثوذكس الى التحول للكاثوليكية والبروتستانتية من أجل الحصول على المساعدات المادية والتعليم والحماية ، ويلحظ التقرير ان فلسطين تزخر بالاديرة والمستشفيات والمدارس ودور الضيافة والارساليات الكاثوليكية في حين تفتقر روسية الى مثيلاتها ، ويرى ان تعمل روسيه في المجالات التي تجني منها الدول الكبرى كثيرا من الفوائد وهي مجالات يتجلى فيها السلطة والمال والورع الديني . وعرضت شركة الملاحة تولي مهمة تقديم عدد من المتطوعين لترسيخ نفوذ روسية في الشرق بأسلوب غير سياسي وبدعم خفي من الحكومة لان التدخل الروسي المباشر في الشرق يبدو ، في نظر الشركة ، متعذرا في الوقت الراهن .

وهكذا تداخلت الدوافع السياسية والدينية والتجارية ، وتحقق لكل المهتمين بقضايا الشرق ان العمل الروسي لايزال دون المستوى المطلوب ، وان على روسيه ان تعمل على تحسين صورتها واعادة تأكيد وجودها في المشرق الارثوذكسي دون الخضوع للاكليركية اليونانية ، وان تقوم بانشاء الكنائس وارسال الاطباء وتقديم العون المادي لرجال الدين العرب .

وعادت روسية الى مسرح الاحداث في المشرق العربي منذ أواخر الخمسينات بعد ان ازدياد نفوذ الدول الاوربية على حساب تراجع النفوذ الروسي ، وخلال احداث ١٨٦٠ فيلبنان رست في ميناء بيروت عدة سفن روسية وجرت مراسيم دينية على ظهر احدى السفن حضرها القنصل الروسي العام في بيروت ، كما تلقت بطريركية انطاكية عقب احداث ١٨٦٠ في دمشق تعويضات مالية من السلطات العثمانية ساهم فيها بعض الافراد الروس بمن فيهم القيصرة(٦٣) ، كذلك شاركت روسية في اللجنة الدولية التي جاءت للتحقيق في احداث ١٨٦٠ وللبحث في تنظيم الاوضاع في لبنان . وقد اقترح المبعوث الروسي في اللجنة تعيين قائمقام ارثوذكسي بالاضافة الى القائمقامين الماروني والدرزي ، ومع انه لم يؤخذ بالاقتراح الروسي ، الا انه حين اقر نظام جبل لبنان المستقل ذاتيا اخذ ببعض المقترحات الروسية بشأن تمثيل الطائفة الارثوذكسية(٦٤) .

ولم يعد القناصل ووكلاء القناصل الروس منذ مطلع الستينات يمثلون وحدهم المصالح الروسية في سورية وفلسطين ، بل اصبح يمثلها ايضا ارسالية دينية رسمية ،

« ولجنة فلسطين » شبه الرسمية التي اسستها شركة كونستانتين . وقام منصوروف بوصفه مديرا اداريا لهذه اللجنة بوضع خطة لعملها المستقبلي تقضي بانشاء مراكز في القدس واماكن اخرى من الاراضي المقدسة ، ترتدي طابع العمل الخيري او مهمة رعاية الحجاج ولكنها تعمل في الوقت نفسه كمؤسسات تجارية . او قنصلية ، ونظمت حملة لجمع الهبات التطوعيةفي روسية قوبلت بنجاح مشجع(٦٥) وقد زار الدوق كونستانتين الاراضي المقدسة في عام ١٨٦٤ ، واعقب ذلك تعيين وكيل قنصلي للجنة فلسطين في القدس ، ومن خلاله ازدادت السيطرة الروسية على رعاية الحجاج ، كما تم شراء قطعة ارض باسم رعايا عثمانيين ، خارج اسوار القدس باتجاه مدينة يافا خصصت لاقامة مجمع روسي مساحته ٣٠ هكتارا (احتوى المجمع فيما بعد عددا من المنشات الروسية : كاتدرائية ومقرا للارسالية واخر للقنصلية بالاضافة الى مستشفى وداري ضيافة للحجاج ، وخانات وصهاريج لجمع المياه) (٦٦)

وكان نوموف ، الاسقف الروسي ، قد تابع خلال اقامته في القدس عمل الارسالية الدينية الاولى ، التعليمية والخيرية ، فانشأ مستشفى ومنح المدارس الخاصة الموجودة في بطريركيتي القدس وانطاكية بعض المعونة ، ولكنه احجم عن فتح مدارس جديدة ، مع انه اشترى ارضا قرب بيروت بهدف انشاء مدرسة عربية ـ روسية ، وارسل الهبات للاديرة والكنائس ، وتوصل الى اتفاق مع فرنسة لاصلاح قبة كنيسة القيامة ، وكان ذلك خطوة هامة نحو تهدئة انقسامات حرب القرم (٦٧) . وقد ادى هذا النشاط الى تزايد شكوك الاكليريكية اليونانية بعد أن اخذت اموال الكنائس الروسية تتجه الى ارسالية القدس (الروسية) بدلا من بطريركية القدس (اليونانية) .

وقد ظل نشاط الارسالية الدينية محدودا لعدم وجود تنسيق بينهما وبين لجنة فلسطين ، الى ان عين ارشمندرت انتونين كابوشتين Antonin Kapustin رئيسا للارسالية في عام ١٨٦٩ ، ورغم انتقاص صلاحيات ونفوذ الارسالية بعد الحاقها عمليا بلجنة فلسطين التي اصبحت احدى دوائر وزارة الخارجية برئاسة منصوروف(٦٨) ، ورغم استمرار التنافس بين المؤسستين الروسيتين واستمرار الخلاف بينهما وبين البطريركية ، وهي تعقيدات اعاقت الجهد التعاوني لدعم واحياء العقيدة الارثوذكسية ، رغم ذلك فقد شهدت السنوات العشر التي سبقت تفجر الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ نشاطا روسيا ملحوظا في فلسطين ، واعتبر كابوشتين نفسه ممثل روسية الحقيقي لانه كان يتلقى دعما مباشرا من ايجناتيف Ignativ المبعوث الروسي في الاستانة (٦٩) ، بدأ كابوشتين خطة واسعة

لشراء الاراضي في فلسطين من اجل عمليات البناء مستعينا ببعض الرعايا العثمانيين لتسجيل هذه الاراضي وخلال اقامته في القدس استكملت المشتريات خارج اسوار القدس لاقامة المجمع الروسي ، بالاضافة الى قطعة ارض في عين كارم لانشاء المستوطنة الروسية . واخرى في بيت جالا لانشاء مدرسة داخلية للبنات الارثوذكس (وهي اول مدرسة روسية في سورية) ، كما بدأ انشاء دار ضيافة للحجاج على قطعة ارض قرب الخليل ، وتم الحصول على ممتلكات اخرى في يافا والرملة وحيفا والناصرة لانشاء دور ضيافة للحجاج(٧٠) ، هذا بالاضافة الى اقامة كنائس ضخمة منها كنيسة الصعود وبرج الحرس على جبل الزيتون وكنيسة يافا . وأولت الارسالية النشاط التعليمي في بطريركيتي القدس وانطاكية اهمية كبرى ؛ وبعد ازدياد التباعد والتوتر بين المواطنين والاكليركية اليونانية . وتصاعد الرأي العربي الارثوذكسي الواعي لمشاركة اكبر في شؤون البطريركية(٧١) ؛ كان عليها ن تحسن وضع رجال الدين من العرب وتهتم بتعليم الاطفال بموافقة او عدم موافقة الاكليركية اليونانية ، مع التركيز على جعل مبادىء الكنيسة الارثوذكسية هي الموضوع الرئيسي للتعليم .

٥ ـ « جمعية فلسطين الامبراطورية » : خطة جديدة للعمل الروسي في الشرق:

لم يكن الاهتمام الروسي المتزايد بالشرق الارثوذكسي بوجه عام وبفلسطين بوجه خاص يوازي النشاطات الكاثوليكية والبروتستنية ، ولم يرض ولاة الامر انفسهم في روسية بنتائج الاعمال التي انجزت ، وعزي الفشل الى معارضة السلطات العثمانية والاكليركية اليونانية (٧٢) من جهة . والى عدم اتفاق الرأي بين الروس انفسهم . وتعدد الاجهزة الروسية وعدم التنسيق بينها . ويلاحظ ان الاهتمام الروسي بالشرق العربي الارثوذكسي لم يثر في روسية ذلك الاهتمام الذي كان يثيره العالم السلافي ، وحتى الاهتمام بالعرب الارثوذكس كان الى حد ما جزءاً من فكرة الجامعة السلافية التي تبحث عن تحرير جميع السلاف الارثوذكس من السيطرة الاجنبية سواء التركية العثمانية او الكنيسة اليونانية(٧٣) . الا ان من ذهب الى الشرق من دعاة فكرة الوحدة السلافية كان يعود وفي جعبته خطة لدعم الارثوذكسية في المشرق تتلخص بانشاء جمعية خاصة تشيد المدارس والمستشفيات والكنائس وتربط نفسها بقضية العرب الارثوذكس .

وكان من بين الذين درسوا المشكلة على الطبيعة ، وابدوا عدم الرضا عن عمل الاجهزة الروسية في فلسطين ، وعدم قدرتها على كبح النشاط الكاثوليكي والبروتستنتي ، فاسيل خيتروفو Vazili Khitrovo الذي ادرك غايات الحكومة

الروسية ، ولكنه لم يكتف بمظاهرها الضئيلة ، وعليه فقد كانت السياسة الوطنية الروسية في نظر خيتروفو متعلقة بالسياسة الدينية وتابعة لها (٧٤) . قام خيتروفو بزيارات متعددة للاراضي المقدسة ، في وقت كانت روسية قد فقدت بعد مؤتمر برلين ١٨٧٨ مجال نفوذها في البلقان ومكانتها بين الشعوب السلافية ، ونشر دراساته التفصيلية عام ١٨٨٠ في كتاب « الارثوذكسية في الاراضي المقدسة » اعطى فيه صورة عن اوضاع السكان العرب الارثوذكس وعلاقتهم برجال الدين اليونانيين كما اعاد تقييم العمل الروسي ومقارنته بعمل الارساليات الكاثوليكية والبروتستنتية، ودعا الى تحديد مصالح روسية في فلسطين ، والى زيادة مكانتها ونشر نفوذها بين السكان المحليين (٧٦) ولم يختلف تشخيص خيتروفو عن وصف اوسبنسكي أو منصوروف الا انه اقترح انشاء جهاز روسي جديد على شاكلة صندوق استكشاف فلسطين(٧٧) لدراسة الاراضي المقدسة ، ونشر المعلومات عنها في روسية بالاضافة الى رعاية شؤون الحجاج الروس في فلسطين وكل ما يتعلق بالوجود الروسي فيها . ووجد خيتروفو في الدوق الاكبر سرجي Sergei (عم القيصر) ، راعيا وحليفا . وكان الاخير قد ذهب الى الاراضي المقدسة حاجا في عام ١٨٨١ .

وصدرت موافقة وزارة الخارجية على انشاء جمعية فلسطين الارثوذكسية الامبراطورية في ايار ١٨٨٢(٧٨) برئاسة الدوق سرجي ، ومقرها سان بطرسبرغ ، باعتبارها مؤسسة ذات طابع علمي احساني محض تتمتع برعاية امبراطورية ، ولكنها غير مسؤولة امام وزارة الخارجية او المجمع المقدس ، وفتحت عضوية الجمعية لجمع المهتمين بالاماكن المقدسة على ان يكون اعضاء الشرف فيها من العائلة الامبراطورية ، وانشىء للجمعية فروع في مدن الامبراطورية الروسية (بلغ عددها عام ١٩٠٢ ثلاثة واربعين في جميع انحاء روسية تضم ١٣٠٠ عضو) ، واعتمدت الجمعية في مواردها المالية على التبرعات والهبات وعلى مساعدة المجمع المقدس . وتولى خيتروفو سكرتيرية الجمعية حتى وفاته ١٩٠٣ ، وبأمر من القيصر نقلت الى المؤسسة الجديدة كل مهام وممتلكات « لجنة فلسطين » ، ومنذ عام ١٨٩٥ امتدت اعمال الجمعية الى سائر انحاء سورية مع احتفاظها باسمها الاصلي . وطبقا لنظام الجمعية حددت اغراضها في جمع المعلومات المتعلقة بالاماكن المقدسة في الشرق ودراستها ونشرها في روسية ورعاية الحجاج، وانشاء المدارس والمستشفيات ودور الضيافة ومنح المساعدات المادية للسكان المحليين وللكنائس ولرجال الدين ، ونصت المادة التاسعة من النظام على ان الجمعية سوف تنسق نشاطاتها وفق توجيهات الارسالية والقنصلية الروسيتين في القدس .

ولم تكن هذه الاهداف جديدة سوى في تركيزها على الدراسة العلمية للاراضي

المقدسة ، وكان ذلك بدافع منافسة المؤسسات الكاثوليكية والبروتستنتية واستطاعت الجمعية الروسية مجاراة عمل « صندوق استكشاف فلسطين » باجر الحفريات الاثرية ، وجالت بعثاتها العلمية في جميع انحاء سورية وفلسطين للكشف عن الاثار المسيحية والبيزنطية ، كما اجرت دراسات عديدة للابنية الاثرية وللمواق القديمة وللمخطوطات ، ونشرت خلاصة اعمالها في مجموعة بلغت ثلاث وستين مجلدا من المجلدات العلمية الجادة باسم مجموعة فلسطين الارثوذكسي Provoslavng Palestinski Sbornik (٧٩) ، وهي تشمل مصادر اولية عن الاراضي المقدسة ومعالمها الدينية خلال فترة الحكم البيزنطي والعهد الاسلامي ، كم تشمل مذكرات الحجاج الروس واليونان والرحالة الذين زاروا المنطقة . مع مقالات حول النشاط الروسي المبكر في المنطقة ، وتعد المجموعة من اكثر المصادر دقة في تحليل جوانب النشاط الروسي في الاراضي المقدسة . وبدات الجمعية منذ ١٨٨٥ باصدار دورية لتغطية جميع نشاطاتها بما فيها التقارير السنوية عن ميزانية الجمعي والاحصاءات الكاملة لاعداد الحجاج ومرضى المستشفيات والطلاب والمدارس ومقالات عن المشاكل التي كانت تواجهها الجمعية ، وجمعت اعدادالدورية فيمجموع اخرى بعنوان : Soobschchenia Imperatoskogo Provoslavnogo Pakistnkogo وتشكل المجموعتان المصدر الرئيسي لجميع اوجه نشاط روسية القيصرية في سوري ولبنان(٨٠) وقد تم تحت اشراف الجمعية اصدار تقارير واخبار مبسطة ومرفقة بالصور والايضاحات لنشرها على مستوى شعبي ، بالاضافة الى كتب « مرشدة » للحجاج مع صور وشروح . وكان هدف المطبوعات الشعبية نشر المعلومات الموثقة عن الاراضي المقدسة وحث الاتقياء على التبرع . ولا شك ان عمل الجمعية العلمي كان امرا يدعو للتقدير ، الا انه لم يعرف كثيرا خارج روسية بسبب عائق اللغة .

وقد ابدت الجمعية اهتماما بشؤون الحجاج ورعايتهم واستضافتهم ، وكان عددهم السنوي قد بلغ ٣٠٠٠ زائر عام ١٨٨٠ ، وفي نهاية القرن قارب العدد ٩٠٠٠ . ويعود سبب الزيادة الى جهود الجمعية لدى شركات النقل الحديدية والبخارية لتخفيف اجور النقل(٨١) . وكان وكلاء الجمعية الروس يتولون رعاية شؤون الحجاج المادية منذ وصولهم الى يافا ، وخلال اقامتهم في فلسطين ، في حين كانت الارسالية الدينية تتولى رعايتهم الروحية . وشملت الرعاية اقامة دور الضيافة ، وتأمين الخدمات الطبية ، ولهذا الغرض اقيم مستشفى في القدس ، ومستوصفات في المدن الاخرى التي توجد فيها دور ضيافة للحجاج ، وشملت الخدمات الطبية المجانية الطلاب في المدارس الروسية والمواطنين الارثوذكس(٨٢) .

وجاءت نشاطات الجمعية من اجل « دعم العقيدة الارثوذكسية » مكملة

لعمل الارسالية الثانية وكانت تشمل بناء عدد من الكنائس وتجديد غيرها (اكنيسة الجثمانية على منحدرات جبل الزيتون) وهي عملية بداها نوموف وازدهرت خلال اقامة كابوشتين وكلاهما كان يتلقى هبات خاصة لشراء الاراضي وانشاء الكنائس والاديرة والمدارس(٨٣) . وبارك البطاركة « اليونان » ما قامت به « الجمعيـة » لاظهار اهتمامهم بمكانة وهيبة الكنيسة الارثوذكسية .

الا ان مساندة « الجمعية » لمحاولات رجال الدين العرب من اجل التحرر من سيطرة الاكليريكية اليونانية ، لاقى مقاومة اعنف ، ذلك ان شكوك الاخيرة كانت في ازدياد منذ عهد الارسالية الاولى تخوفا من دوافع روسية السياسية ، واستياء من الدعم الروسي المعنوي والمادي للحركة الارثوذكسية في مقاومتها للسيطـرة اليونانية وفي سعيها لاستعادة الكنيسة الارثوذكسية صبغتها الوطنية(٨٤) ، وزاد في استياء الاكليريكية اليونانية تناقص دخلها السابق من رعاية الحجاج الروس ، ورفض الروس ارسال الاموال الى المدارس والكنائس من خلال البطريركية ، رغم أن البطريركية ظلت تعتمد على مصادر روسية مادية اخرى .

وفي الواقع لم يكن هدف روسية انشاء كنيسة روسية في سورية وفلسطين خارج الكنيسة المحلية ، او الاستيلاء على البطريركية في القدس وانطاكية ، بل كان هدفها تشجيع محاولات الاغلبية الارثوذكسية العربية للتخلص من الرياسة الروحية اليونانية ، واستبدالها بعناصر وطنية ، وهي حركة كانت دليلا واضحا على شعور قومي متنام . ولم تعد تكتفي بتنازلات طفيفة بل كان هدفها النهائي تعريب كامل للكنيسة . وكان مقدرا لهذه الحركة ان تحدث ان عاجلا أو اجلا بسبب جهل وتعسف هـذه الرياسة وتخليها عن مسؤوليتها الرعوية ورفضها تقديم اي تنازل يمس بتفوقهـا وسيطرتها (٨٥) ، وجاءت جهود روسية لتجعل الخلاف بين العرب والاكليريكية اليونانية نزاعا محتما ومحدداً ، وخاصة لدى الجيل الارثوذكسي الناشىء الذي شعر بمرارة الوضع المؤسف للطائفة الارثوذكسية وادرك فساد الهيئة الاكليريكية التى تسيطر عليها ، واستخف برياستها الروحية وطالب باصلاح جذري للاوضاع(٨٦) ومع ان محاولات نزع بطريركية القدس لم يكتب لها النجاح نظرا لعنف المعارضة(٨٧) اليونانية ، فقد تم انتخاب بطريرك يوناني له ميول روسية ، وهو نيكو ديمـوس Nicodemos وكان قبل انتخابه ممثلا عن مجمع القدس في روسية ، وتشـير المنشآت الضخمة الروسية من كنائس واديرة ودور ضيافة الى ان البطريرك لم يعد قادرا على الاستغناء عن المساعدة الروسية(٨٨) .

ولم يكن صدفة انه بعد ثلاث سنوات على نشاط جمعية فلسطين الارثوذكسية

الامبراطورية في سورية تم انتخاب رجل دين عربي لبطريركية انطاكية خلفا للبطريرك اليوناني بعد وفاته ١٨٩٩ ، وهو أول عربي يشغل كرسي البطريركية في التاريخ الحديث . وكان النفوذ الروسي وراء هذه الانتخابات (٨٩) واكدت شكوك الاكليريكية اليونانية في خطط روسية ضد التفوق اليوناني في البطريركيات الشرقية . ورغم استقالة الاساقفة اليونان في مجمع البطريركية ورفض البطاركة الثلاثة انتخابه طبقا للاعراف المتبعة ، فقد ادار بطريرك انطاكية العربي (ملاتيوس دوماني) في دمشق امورابرشيته بحرية معتمداً على مساندة جمعية فلسطين والقنصل الروسي . وقد ظل الدعم الروسي للمطالب العربية حتى عام ١٩١٤ وكان عاملا هاما في دفع الحركة الارثوذكسية الوطنية ، الا ان بعض الروس قد اقلقهم الاتجاه العنيف الذي اتخذته الحركة بعد اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ حين تجاوزت المطالب العربية مسألة المشاركة الاوسع في شؤون البطريركية الى استعادة الحقوق القومية التي اغتصبها اليونان(٩٠) . وقد دفع الدعم الروسي للحركة الارثوذكسية الوطنية ، الاكليريكية اليونانية ، للتقرب من ممثلي بربطانية في المنطقة من اجل التدخل لدى الباب العالي لوقف انتشار الروس في سورية – فلسطين(٩١) .

وبسبب معارضة الاكليريكية اليونانية لنشاط جمعية فلسطين في المجال الديني ، انصرفت الى حقل التعليم من اجل تقوية العقيدة الارثوذكسية لدى الناشئين ، وكانت روسية قد طرقت ميدان التعليم في وقت متأخر لمواجهة نشاط الارساليات البروتستنتية والكاثوليكية التربوي ، وبعد ان توجه الكثير من ابناء الطائفة الارثوذكسية الى مدارس تلك الارساليات للاستفادة من الفرص التعليمية التى تقدمها . ويلاحظ انه منذ اربعينات القرن الماضي كانت اعداد مدارس الكنيسة الارثوذكسية الابتدائية في ازدياد في المدن الرئيسية في سوربة وفلسطين، كما انتشرت المدارس الارثوذكسية في القرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وجميعها كانت تتلقى مساعدات روسية دون اشراف فعلي(٩٢) ، وتمتعت بموافقةالبطريركية ورعايتها في القدس وانطاكية ، واعتمدت على كوادر محلية ، وخاصة بعض الشبان الارثوذكس الذين ذهبوا الى روسية قبل منتصف القرن للبحث عن الثروة او العلم(٩٣) .

وقد دفع نجاح التجارب السابقة ، وازدياد نشاط الارساليات الاجنبية ، « جمعية فلسطين » الى طرق مجال التعليم ، ولم يقتصر الامر على منح المدارس الارثوذكسية المحلية الدعم المالي بل تجاوزه الى انشاء المدارس الابتدائية التي عمل فيها معلمون روس او معلمون من العرب الارثوذكس تدرب معظمهم في روسية ، واستطاعت الجمعية رغم كل العوائق تطوير نظام تعليمي للعرب الارثوذكس بدأ في

فلسطين (وخاصة في منطقة الجليل) ، ثم امتد الى خارج الاراضي المقدسة بعد عام ١٨٩٥ وتولت الجمعيــة تمويل وادارة مدارس بطريركية انطاكية (في دمشق وحمص وحماة وطرابلس واللاذقية) ،وبلغ عدد المدارس الروسية في عام ١٩١٣ ، مايقرب من ١٠٠ مدرسة فيها مايقاب ١٢٫٠٠٠ طالب وطالبة (٩٤) ومعظم تلك المدارس في سورية ولبنان ، اما في فلسطين فلم يتجاوز عددها ٢٥ مدرسة منها اربع في منطقة القدس (٩٥) . وجميع المدارس مجانية ابتدائية عدا مدرستين الاولى مدرسة البنات الداخليــة في بيت جالا ، ومدرسة البنين في الناصرة ، واصحبتا معهدين لتدريب المعلمين والمعلمات . وقد عهد خيتروفو(عقل الجمعية وروحها المحــركة) الى اسكندر كزما .. مدير مدرسة الناصرة للبنين (وهــو دمشقي درس في اكاديمية موسكو اللاهوتية) ، عهد اليه بمهمة الاشراف على المدارس الارثوذكسية ، وكان يتبع مباشرة القنصل العام في بيروت ويساعده مفتشان روسيان الاول مركزه طرابلس للاشراف على مدارس المنطقة الشمالية واخر في دمشق للاشرف على مدارس المنطقة الجنوبية . واعترفت الحكومة العثمانية عام ١٩٠٢ بالمدارس الروسية (٩٦) .

واستطاعت الجمعية ، غم حداثة عهدها في ميدان التعليم ، ان تجاري المؤسسات البروتستنتية والكاثوليكية وان تتفوق عليها في مدرستي تدريب المعلمين،واستمالت ابناء الطائفة الارثوذكسية ، وانسحب كثير من الطلبــة الارثوذكس مــن المدارس الكاثوليكية والبروتستنتية للالتحاق بالمدارس الارثوذكسية الجديدة (٩٧) ، وشعر الروس بوجه عام بحماس اولياء الامور للتعليم (٩٨) ، وقد شرح احد خريجي المدارس الروسية ، وهو اسعد داغر (٩٩) ، العوامل التي مكنت المدارس الروسية من الانتشار ومنها قدرة ونفوذ« جمعية فلسطين الامبراطورية » نظرا لانها تتمتع برعاية امبراطورية، ومجانية التعليم بالقياس الى الارساليات الانجليكية والكاثوليكية ، وهو امر مغر للاهالي بارسال أولادهم تخلصا من نفقات التعليم واثمان الكتب . يضاف الى ذلك توفير تربية دينية تقليدية للناشئة تمكنهم من التعرف على اسس المذهب الارثوذكسي ، وهــو الامر الذي كان يوافق ميول السواد الاعظم من ابناء الطائفــة الارثوذكسية الذين كانوا هدفا للجمعيات الاجنبية ، كذلك فقد سنت الجمعية لمدارسها قوانين غاية في الدقة روعيت فيها صحة الطلاب الجسدية ونشاطهم العقلي .

واعترضت تطبيق المشروع الروسي التربوي عدة عقبات اذ لم تكن الجمعية بمواردها المالية قادرة على تلبية الحاجة الفعلية في البطريركية، ولم تستطع انشاء مدارس تدريب في سورية ولبنان ، عدا معهدي الناصرة وبيت جالا ، لتخريج العدد الكافي من المؤهلين لمواجهة حاجات التوسع في المدارس خارج فلسطين ، كذلك لم

تستطع انشاء مدارس ثانوية لاستيعاب الطلاب بعد انتهاء المرحلة الابتدائية ، ولم تضع خطة لانشاء كلية جامعة في بيروت على شاكلة الكلية البروتستنتية واليسوعية(١٠٠). وكذلك فقد عانت مدارس الجمعية من نقص الكوادر العلمية ، ولم يتوفر عدد كاف من المدرسين الروس الراغبين بالعمل خارج بلادهم ، او من المدرسين العرب ذوي الكفاءة . هذا بالاضافة الى اختلاف الغاية من العمل التربوي لدى الجهات الروسية المسؤولة : ففي حين كانت « الجمعية تنتظر من اعمالها التربوية نتائج دينية وتهتم بسلامة العقيدة الارثوذكسية وتعليم اللغة الروسية ، كان ارباب السياسة الروسية يرجون منها نتائج سياسية ، ويرون في المدارس الروسية ادوات لنشر النفوذ الروسي(١٠١) . ولم ترق لبعض موظفي وزارة الخارجية الروسية الروح التقليدية التي تبنتها الجمعية في التعليم ، وطالبوا بتغيير وتطوير المناهج بشكل يتلاءم مع تبدل ظروف الحياة . وأيد تلك المطالب العديد من اولياء امور الطلاب في سورية فلسطين ، وهدفت تلك المطالب الى ادخال « العلوم المفيدة » واللغتين الانجليزية والفرنسية الى جانب تعليم اللغة الروسية والمواد الدينية ، اعتقادا بان هذا التغيير يساعد على ايجاد فرص عمل افضل (١٠٢) .

وبسبب عجز الجمعية المالي ، قبلت مساعدة وزارة الخارجية واشرافها (١٠٣) وقبلت ان تغير مناهجها التعليمية (١٠٤) . وتقدمت بمنهاج جديد يتم فيه تعليم مواد غير تقليدية والاقلال من الاهتمام باللغة الروسية والمواد الدينية ، مع اختيار احدى اللغتين الانجليزية او الفرنسية . ولم يكن هذا المنهاج مطابقا للاهداف الاولى لجمعية فلسطين الارثوذكسية (١٠٥) ، وكانت الجمعية على وشك الاخذ بالاراء الاصلاحية حين جاءت الحرب ووضعت حدا لنشاطها (١٠٦) .

وبوجه عام ، فانه رغم المشكلات التي واجهت النشاط التربوي الروسي . فقد بذل الروس جهدهم في فلسطين مدة اربع وثلاثين سنه وفي سورية مدة تسع عشرة سنة من اجل خلق تقليد تربوي متين مستخدمين الامكانات المحددة التي توفرت لديهم ، وكان لهذا الجهد عدة نتائج .

اولا : انتشرت المعرفة باللغة والثقافة الروسيتين ، فاللغة الروسية كانت تدرس في مدارس الجمعية (وكان امرا مالوفا لدى جميع المؤسسات التعليمية الاجنبية العاملة في سورية وفلسطين ان تدرس بلغتها الخاصة) . وكانت معرفة اللغة الروسية تتيح للطلاب فرصة متابعة تعليمهم في المدارس الثانوية في الناصرة وبيت جالا ، حيث كانت معرفة اللغة الروسية شرطا اساسيا للانتساب الى هاتين المدرستين ، ومع ان عدد طلاب وطالبات المدرستين لم يكن كبيرا لكنهم ربما كانوا اكثر تأثرا من غيرهم

بالثقافة الروسية ، كذلك كانت معرفة اللغة الروسية تتيح للطلاب المتفوقين فرصة تلقي المنح لمتابعة الدراسة في روسية . وقد اصبح بعض خريجي مدارس الجمعية قادرين على قراءة امهات الادب الروسي باللغة الاصلية ، وترجموا مؤلفات بوشكين وتولستوي وتشيخوف وتورغنيف وغوغول وغوركي الى العربية (١٠٧) ، وانتقل بعضهم الى روسية وساهموا في حركة الاستشراق (١٠٨) وازداد بذلك الاهتمام العربي بالحياة السياسية والادبية الروسية ازديادا ملحوظا .

ثانيا : حرصت «الجمعية» في مدارسها على ان تولي اللغــة العربية اهتماما كبيرا واعتمدت في ذلك على خدمات العرب المدربين في روسية ، وعلى من لديهم خبرة في التعليم واتقان للعربية ، ومنذ نهاية القرن التاسع عشر انتجت الطابع عددا من الكتب المدرسية بالعربية في الادب واللغة(١٠٩) ، بالاضافة الى الكتب المترجمة عن الروسية . واصبحت تراثا مشتركا بين المسلمين والمسيحيين ، (وهذا تقليد كانت تتبعه الارساليات الاجنبية الاخرى في المدارس التي ترعاها بالاضافة الى ادبها الديني الخاص) . ومع انه لايوجد دليل مقنع على ان الروس قد استخدموا المدارس لاثارة الوعي القومي العربي ضد الاكليركية اليونانية او ضد السلطات العثمانية ، الا ان المدارس الروسية كان لها تأثير على اليقظة القومية بمعنى اخر هو التزامها بتدرس اللغة العربية والادب العربي ، وخريجو تلك المدارس هم الذين تولوا بعد الحــرب تدريس العربية في المدارس وخاصة في منطقة الانتداب (١١٠) البريطاني .

ثالثا : كان من نتائج العمل التربوي الروسي ان خلق شعورا بالود نحو روسية لدى عدد من العرب الارثوذكس وغرس في نفوسهم احتراما لحضارتها .

وقد تجلى هذا الموقف المتعاطف بعد هزيمة روسية في حربها مع اليابان ١٩٠٤ — ١٩٠٥ . ومع ان الهزيمة التي الحقتها دولة اسيوية بدولة اوروبية كان لها انعكاساتها في العالم المشرقي بوجه عام ، وفي المشرق العربي بوجه خاص ، لانها ولدت الثقــة بامكانية التخلص من السيطرة الاجنبية (١١١) . الا ان العرب الارثوذكس نظروا الى الهزيمة الروسية من زاوية اخرى ، باعتبار ان روسية كانت الحامية الكبرى للارثوذكسية . ولكن تعاطف العرب الارثوذكس مع روسية امتزج بشعور الاعجاب بالنصر الياباني على دولة اوروبية كبرى ، ولم ينف الشعور الاول وجود الشعور الثاني (١١٢) . وحاول بعض الكتاب العرب الارثوذكس في سورية البحث عن اسباب الهزيمة الروسية وعزوها الى الفساد والطغيان ورحبوا بثورة ١٩٠٥ التي رأوا فيها ثورة فرنسية اخرى بعد قرون طويلة من الديكتاتورية والاضطهاد (١١٤) .

وبعد مرور ربع قرن على عمل « الجمعية » في الشرق العربي ، لخصت رسالة النسر الموجهة الى الجمعية بمناسبة الاحتفال بيوبيلها الفضي ، منجزات الجمعية بالارقام المجردة : فممتلكات الجمعية قدرت بمليوني (روبل) ؛ وهي تشمل ثماني دور نسبافة للحجاج فيمراكز مختلفة قادرة على استيعاب عشرة آلاف حاج ، واربع كنائس، ومستشفى في القدس وست مستوصفات في اماكن اخرى ، ومايزيد عن مائة مدرسة تضم حوالي ١٢٫٠٠٠ طالب وطالبة ؛ وجميع الممتلكات الروسية هي في فلسطين ، عدا المدارس ، فأغلبيتهـا في سورية ولبنان (١١٥) .

وقد اثارت نشاطات الجمعية مخاوف الارساليات الكاثوليكية والبروتستنتية ، واتهم الفرنسيون الجمعية بانها تخطط للاستيلاء على بطريركتي القدس وانطاكية واغراق الاراضي المقدسة بالرهبان والروبلات (١١٦) ، وكتب احد الاباء اليسوعيين في عام ١٨٩٨ (١١٧) « ان موظفي روسيه يعملون عملهم من مدة طويلة ، بين الارثوذكس حتى يمكن ان نعتبر اليوم انهم فازوا بالنصر ، وها ان قيصر روسية كان ان يصبح الها في نظر روم سورية » . وزاد نشاط الجمعية وتوسعها التدريجي في سورية ولبنان من حذر ويقظة الهيئات الدبلوماسية الانجليزية العاملة في الشرق ، واحتوت تقاريرها من القدس ودمشق وبيروت والاستانة تفصيلات ووقائع واحصاءات دقيقة عن عمل الجمعية (١١٨) ؛ ووجد المراقبون الانجليز في الشرق بوجه عام ، ان جهود روسيه لدعم ورعاية الكنيسة الارثوذكسية قد منحها تفوقا سياسيا قد يدفعها للمطالبة بحماية الاماكن المقدسة ، خاصة بعد ان بدأ النفوذ البريطاني بالتراجع (١٩٩) . وخشي هؤلاء المراقبون ان تصبح انجلترة خارج التنافس الروسي الفرنسي فيالمنطقة، بعد ان ازداد عدد المؤسسات الدينية والخيرية والتعليمية الخاصة بالجمعيات الروسية والفرنسية (١٢٠) .

٦ ـ تطورات اخيرة في علاقات روسية القيصرية بالمشرق العربي .

ادت محاولة المانية لاثبات وجودها على البوسفور منذ نهاية القرن التاسع عشر الى احتمال اثاره الصراع على النفوذ في المشرق العثماني بين الدول الاوروبية التي كانت تدعي لها حقوقا تقليدية في المنطقة (١٢١) ، وعارضت روسية مشروع انشاء خط حديد بغداد ، وادعت ان أي امتداد لخط اناضوليا نحو سورية سوف يتعارض مع تطلع روسيه للوصول الى الاسكندرية عبر ارمينيا ، وهو ما يتيح للبضائع الروسية امكانية الوصول طوال السنة الى ميناء على بحر دافىء (١٢٢) . ووقفت انجلترة في وجه المزاحمة الروسية في التجارة والمواصلات بعد ان افتتحت شركةالملاحة

والتجارة الروسية خطا ملاحيا منتظما بين اوديسا وموانى الخليج العربي ،

ووصلت (كورنيلوف) اول سفينة للشركة الى البصرة عام ١٩٠١ (١٢٣) .

ولكن ازدياد النفوذ الالماني ، اقتصاديا ودبلوماسيا ، في الدولة العثمانية كان احد العوامل التي ادت الى تغير السياسة التقليدية للبلدين ، اي انجلترة وروسية ، تجاه بعضهما ، لان هذا النفوذ اعتبر تهديدا لمصالحهما في الشرق ، وتم بذلك عقد الاتفاق الروسي الانجليزي ١٩٠٧ ، ثم جاءت التطورات التالية حين نجحت المانية في جر الدولة العثمانية الى الحرب في تشرين ثاني ١٩١٤ ضد دول الحلفاء واغلقت بذلك طريق امدادهم الرئيسي نحو روسية ، التي اصبحت بالتالي حليفة لانجلترة ضد الدولة العثمانية والمانية معا(١٢٤) . واصبح الوصول الحر الى البحر المتوسط احد العوامل البارزة التي دفعت روسيه لدخول الحرب .

وقد تحققت انجلترة من اهمية المضائق بالنسبة لروسية ووعدت بتقرير مصيرها وفقا لمصالح روسية ويمثل الاتفاق السري في ٤ آذار - ١٠ نيسان ١٩١٥ بين دول الحلفاء انقلابا جذريا للسياسة الانجلو فرنسية التقليدية تجاه روسيه فقد قبلتا دعاوي روسية التي قدمها وزير الخارجية سازونوف Sazonov الى السفيرين الانجليزي والفرنسي في روسية وتتلخص هذه الدعاوي بالحاق الاستانه وشواطيء البوسفور والدردنيل وبحر مرمرة (١٢٥) . وقبل وزير الخارجية الروسي بدعاوى فرنسة في سورية بحجة ان ماتدعيه الاخيرة من مصالح تقليدية فيها هي اقوى من مصالح روسية ، الا انه نظرا لارتباطات روسية الروحية بالاماكن المقدسة ، لم يكن سازونوف على استعداد لتسليم الاشراف عليها لفرنسة(١٢٦) . ووسعت اتفاقية سايكس-بيكو في ايار ١٩١٦ شروط التفاهم الفرنسي الانجليزي الروسي الذي تم التوصل له ربيع ١٩١٥ ، وقد نصت الاتفاقية على اقتسام المشرق العربي (الاقاليم الاسوية من الدولة العثمانية ولم تتمسك بأي جزء من المشرق العربي . وهكذا اوشكت الحكومة فلسطين (وهو النظام الذي قبلته روسيه) ، وخصت روسيه بالاقاليم التركية من الدولة العثمانية عدا الجزيرة العربية) بين فرنسة وانجلترة واقامة نظام دولي لمظم القيصرية على الخروج من الحرب بمكتسبات اقليمية في الدولة العثمانية وكادت تحقق اهدافها التقليدية بالاستيلاء على المضائق والوصول الحر الى المتوسط ، وتردد الحديث في روسية عن احتمال القيام بالمراسيم الارثوذكسية في سانتا صوفيا (١٢٧).

وكشفت حكومة البولشفيك في بتروغراد الوثائق السرية لاتفاقات الحكومة القيصرية واعلنت تخليها عن كل الدعاوي الاقليمية للحكومة السابقة ، وكان امام الحكومة الجديدة مشاكل اكثر الحاحا من احتلال الاستانة ، كذلك لم تشغلها مسألة الاماكن المقدسة .

وكانت قضايا الشرق ونضال التحرر الوطني لشعوبه قد اثارت اهتمام لينين حتى قبل الثورة (١٢٨) .

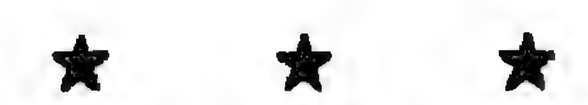
خاتمة :

تركزت الاهداف الروسية السياسية لمدة طويلة على الاستانة والمضائق . ولكن منذ اربعينيات القرن التاسع عشر قدمت مناطق الشرق العربي ، وخاصة سورية وفلسطين ، مناسبة امام الدبلوماسية الروسية والكنيسة الارثوذكسية الروسية لارساء نوع من الوجود الروسي الارثوذكسي في الشرق . ولقد اعتقد موجهو السياسة الخارجية في روسيه القيصرية انه بذلك يمكن دعم مكانة روسية كدولة كبرى ، واعتمدوا على الشعور الديني التقليدي لدى الشعب الروسي ، الذي كان يمجدرسالة روسية المسيحية في العالم الارثوذكسي بوجه عام (١٢٩) ، كما ان رجال الكنيسة الروس اعتقدوا ان نشاطهم في سورية وفلسطين يدعم العقيدةالارثوذكسية بين العرب ويوقف التحول نحو الكاثوليكية او البروتستنتية ، ويواجه نشاط الارساليات الاجنبية للطائفتين . وهكذا كان الاهتمام الروسي بالمشرق العربي يمثل الاهتمام بالعقيدة الارثوذكسية من جهة ومن جهة إخرى يمثل المصالح الروسية في شرقي المتوسط (١٣٠) .

وقد ادت محاولة روسية لارساء هذا الوجود الروسي الارثوذكسي الى نتيجتين:
النتيجة الاولى في تأثيرها على العرب الارثوذكس الذين تطلعوا الى روسية وتعلقوا بها باعتبارها الدولة الارثوذكسية الكبرى ، وليس من اجل المساعدة المادية فقط ، واقيم نوع من الصلة الروحية والثقافية بين روسيه القيصرية والعرب الارثوذكس ، دون ان يعني ذلك الترحيب او الرغبة بالحماية الروسية . وقد ظل اهتمام روسية بالعرب الارثوذكس احد مظاهر الدبلوماسية الدولية (١٣١) ، ولم تكن على استعداد كدولة كبرى ، لوضع مصالح هؤلاء فوق مصالحها القومية (١٣٢) . كذلك لم يكن اهتمام رجال الكنيسة الروس بالعرب الارثوذكس لكونهم عربا بل بصفتهم ارثوذكس ، وحتى اولئك الذين تعاطفوا مع مساعي الكنائس الشرقية للتخلص من سيطرة رجال الدين اليونان لم تكن لهم معرفة كافية بالعرب (١٣٣) .

النتيجة الثانية : انها عززت الى حد ما مكانة روسية في منطقة الشرق العربي ودخلت بذلك اكبر دولة ارثوذكسية في صراع مع الدول الاوروبية الاخرى . ومع ان محاولة روسية لاثبات جودها كانت ضئيلة بالقياس لمحالات الدول الاخرى ،

واقتصرت على النشاط التعليمي ورعاية الحجاج ، وكان ينقصها وحدة الراي والهدف بين الدبلوماسيين ورجال الكنيسة ، وتم الكثير من اعمالها بمبادرات فردية ، فقد أقلق ازدياد النشاط الروسي كلا من فرنسة وانجلترة . واعتبرت روسية منذ اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين منافسا خطرا لهما في سورية وفلسطين . وتوصلت بعض الافتراضات الخاطئة الى ان نشاط الجمعية الامبراطورية هو مقدمة للسيطرة السياسية ، ان لم يكن للاحتلال التام . واتجه الدبلوماسيون الانجليز الى المبالغة حول المغزى السياسي للتحراكات الروسية في المجالين الديني والتعليمي(١٣٤) . الا ان المفاوضات التي تمت بين انجلترة وفرنسة وروسية بعد نشوب الحرب لتوزيع مناطق النفوذ ، او ماسمي بالدعاوي الاقليمية في الدولة العثمانية ، هي دليل واضح على ان المخاوف التي صورت قبل الحرب عن الاطماع الروسية في الشرق العربي كانت مبالغا فيها . واثبتت ان الاهتمام الروسي بالارثوذكسية في سورية وفلسطين لم يترجم الى محاولة « للضم » السياسي ، فقد سمحت روسية لحليفتها بالتصرف بمصير سورية ولبنان ، واكتفت بالنسبة لفلسطين بوضعها تحت ادارة دولية ، وتخلت روسية القيصرية عن حماسها العاطفي للعقيدة الارثوذكسية مقابل تحقيق اغراض سياسة في المضائق والاستانة .



الحواشي :

(١) Tibawi, A. L., Russian Cultural penetration of syria - Palestine in the ninteenth century, royal **Central Asian Journal,** vol. 53, 1966, (part I), P. 166.

(٢) Kliemann, A. S., **soviet Russia and the Middle East,** studies in International affairs, John Hopkins university, 1970, P. 27.

(٣) Spector, I., **The soviet union and the Moslem world, 1917-1956.** washington, university of washington press, N. D., P. 2

(٤) نجيب عزوري ، يقظة الامة العربيــة ، ص٨٢ ـ ص ٨٥ تعريب احمد بو ملحم بيروت ١٩٧٩ عن كتاب ،

Azuri, N., **Le reveil de la nation Arabe,** Paris 1905, N. D., P. 2.

(٥) Kliemann, P. 31.

(٦) كانت الكنيسة الارثوذكسية منذ بداية نشاتها، وقبل انفصالها عن كنيسة روما في القرن الحادي عشر ، تنقسم الى اربعة بطـريركيات : القسطنطينية ، الاسكندرية ، انطاكية والقـدس ، واعتبرت جميعها مستقلة ومتساوية في المرتبة . الا ان بطريركية القسطنطينية بفضل موقعهاكمركز للامبراطورية البيزنطية ، فاقت غيرها بالسلطة والمكانة ، وكان جميع رجال الدين فيها يونانيين وقـد دعيـت بالبطريركيـة « المسكونية » أي العـالميـة لانهـا « تملك حـق السيطـرة الدينية والقيادة علـى الثلاث الاخـرى ،وتمتـد سلطتهـا علـى الكنائس ذات الادارة الذاتية في الصرب واليونان ورومانية وروسية . وتمتد سلطة بطريركية انطاكية على كل سوريـة والعراق (ومقر البطريرك في دمشق) ، وتشرف بطريركية القدس على فلسطين حتى حدودهـا الطبيعية وتتبع مصر باكملها بطريركية الاسكندرية . وينتخب البطاركة من قبل المجامع المحليـة المؤلفة من كبار رجال الدين ووجهاء الابرشية ويثبتون من قبل البطاركة الاخرين ، اما البطريرك المسكوني فينتخب من قبل مجمع القسطنطينية بالاضافة الى البطريركيات الاخرى .
عزوري ، ص ٨٦ ، وايضا مجلة المشرق ،مجلد ١١ ، ١٩٠٨ ص ٢٢٣ مقال الكنيسة الشرقيـة الارثوذكسية للاب فرنيس تورنبيز اليسوعي .

(٧) لن يعالج هذا البحث توسع النفوذ الروسي لدى مسيحيي البلقان الذين تربطهم بسكان روسيه اواصر العرق والدين .

(٨) Tibawi, (Part I) P. 174.

(٨)مكرر) الغى بطرس الاكبر فيما بعد البطريركية و جعلها تحت اشراف المجمع المقدس Synod الذي يراسه الوكيل الاعظم يعينه القيصر وبذلك اصبحت الكنيسة احد اجهزة الدولة .

(٩) Hopwood, D., **The Russian Presence in Syria and Palestine, 1843 - 1914 : Church and Politics in the near East,** Oxford 1969 P. 10.

وبذكر نجيب عزوري في كتابه يقظة الامة العربية (المشار اليه سابقا ص ٨٣) ان قدسية روسيه في نظر رجال الدين الارثوذكس كانت في « تجسيدها للارثوذكسية ، الدين الحقيقي الذي يجب ان يهيمن على كل الارض من اجل اتمام نبوءة الانجيل عندما يتحدث عن راع واحد وقطيع واحد والقيصر الابيض ابن الشمس هو القائد المنظور لهذا الدين العالمي » .

(١٠) منح محمد الفاتح ، بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ ، البطريرك المسكوني الرئاسة الدينية والمدنية لطائفة الارثوذكس (الملة) ، واصبح البطريرك المسكوني يتمتع بمركز رسمي في الدولة ، ويمارس سلطة اكبر من زملائه البطاركة في الاقاليم . عزوري ، المصدر السابق ، ص ٨٦

(١١) Hopwood, P. 4

(١٢) عزوري ، ص ٨٧ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(١٤) Hopwood, P. 10.

(١٥) Persen, W., Russian activity in the Middle East before world war I (A research note): Report on corrent research on the Middle East; 1956, Middle East institute, washington, D. C. 1956-8, P. 39.

(١٦) مجلة المشرق ، جزء ٣٣ ، ١٩٣٥ مقال « آخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » ، ١٨٩٥ – ١٩١٤ استنادا الى وثائق غير منشورة بقلم الكسيس بوكوليوبسكي والاب جبرائيل لوفنك اليسوعي ، ص ٥٧٤ ويذكر المقال انه في رحلة البطريرك مكاريوس ١٦٥٢ – ١٦٥٩ التي نشرت مرارا دليل على ماكانت تتحف به روسية احبار الارثوذكس من هدايا واعانات .

(١٧) Hopwood, P. 5.

(١٨) Ibid, P. 3.

(١٨ مكرر) كانت ابرشيات انطاكية والقدس ، سواء كانت مطرانيات او اسقفيات ، تضم في منتصف القرن التاسع عشر مايزيد عن ٤٠٠,٠٠٠ من العرب الارثوذكس ، واكبر تجمع لهم في القدس والقرى التي حولها. وكان كبار رجال الدين في ابرشيات البطريركتين من اصل يوناني يجهلون اللغة العربية، ولايبذلون جهدا لتعلمها ، وقد ابعد رجال الدين العرب عن الاعمال الهامة وكلفوا باعمال ثانوية ، بينما اقتصرت المهام المربحة والفخرية على رجال الدين اليونان ، وجمعوا ثروات طائلة بينما رزحت الابرشيات تحت الديون . عزوري ص ٨٩ .

(١٩) Hopwood P. 13.

(٢٠) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٣٠٨ ، ٣٥٦ .

(٢١) Persen, W., The Russian Occupation of Beirut 1772 - 1774, **Royal Central Asian Journal**. July - Oct. 1955, P. 283.

(٢٢) تذكر المؤلف ان العلم الروسي رفع خلال تلك الفترة ببيروت ، كما علقت صورة الامبراطورة كاترين على بوابة المدينة الرئيسية ، وأجبر المارة على تقديم فروض الاحترام لها .
Tibawi, (Part I) P. 167.

(٢٣) Spector, P. 4
وفقا للسياسة الجديدة التي وضعها وزير الخارجية الروسي نسلرود Nesselrode تخلت روسية مرحليا عن هدف احتلال الاستانة واخراج الاتراك العثمانيين من اوروبة . وذلك لابقاء الدولة العثمانية « جارة ضعيفة تابعة » .

(٢٤) Kedourie , E . , Religion and Politics : The Diaries of Khalil sakakini, st, Antony's Papers, No.4, Middle Eastern Affairs, Oxford 1958, P. 80.

(٢٥) Stavrou, T. G., Russian interest in the levant 1843-1848, Porfirri Uspenskii and establishment of the first Russian ecclesiastical Mission in Jerusalem, Middle East Journal 1963, Vol. 17, P. 91.

(٢٦) كانت انجلترة اول دولة اوروبية تنجح في تاسيس قنصلية في القدس ١٨٣٨ ونشطت لحماية اليهود

(٢٧) شغل بازيلي منصب القنصل العام حتى ١٨٥٣ ووضع كتابه (سورية وفلسطين تحت الحكم التركي تاريخيا وسياسيا) في عام ١٨٦٢ وقدم فيه وصفا لتاريخ وثقافة البلدين واطلع غوغول خلال اقامته في بيروت ضيفا على صديقه بازيلي على مخطوط الكتاب وكتب عنه بان « الكتاب سيعرض على اوربة الشرق بشكله الحقيقي ، معارف ثرة واهتمام شديد : بونداريفسكي ، سياستان ازاء العالم العربي ، مترجم ، ص ٣٦٤

(٢٨) Stavrou, P. 91

(٢٩) Tibawi (Part I) PP. 167 - 68

(٣٠) Stavrou, P. 96.

(٣١) Ibid, P. 97.

(٣٢) Tibawi, (Part I). PP. 168 - 69.
نقلا من رسالتين من القنصل يونغ الى لورد بالمرستون بتاريخ ١٨٣٩/٣/١٤ و ١٨٣٩/١٠/٢١ .
F. O. 78/368. ورسالة اخرى بتاريخ ١٨٤٠/١/٢٩ برقم F. O. 78/413

(٣٣) في عام ١٨٤٠ جاء بازيلي نفسه للاحتفال بعيد الفصح في القدس . وكان في مقدمة الحجاج العديد من الجنود السابقين يرتدون البستهم الرسمية واوسمتهم ، ساروا عبر الشوارع الضيقة في مدينة القدس نحو كنيسة القيامة . ويدعي القنصل البريطاني في رسالة له الى بالمرستون في ١٨٤٠/٤/٢٨ F.O.78/413 انه سمع بعض الحجاج وهم يفاخرون بان الوقت قد حان لتقع الاراضي المقدسة بيد الحكومة الروسية . Ibid, (Part I), P. 169

(٣٤) حذت روسية حذو الدول الاوربية الاخرى لتوثيق معرفتها بكل ما يتعلق بالشرق العربي من علم وحضارة ولغة ، واخذت حركة الاستشراق نهجا علميا على اثر تطبيق النظام الجامعي ١٨٠٤ وادراج اللغات السامية ومنها العربية في مناهج المعاهد العليا وكانت جامعة خاركوف هي اول جامعة اخذت في تطبيق النظام الجامعي بتدريس العربية منذ اربعينات القرن الماضي . وقد عاون على تدريس اللغة العربية في معاهد روسية بعض العرب ، كان اولهم الشيخ محمد عياد الطنطاوي ١٨١٠ - ١٨٦١ الذي استدعاه القيصر ١٨٤٠ للتعليم في مدرسة الالسن التابعة لوزارة الخارجية انظر نجيب العقيقي ، المستشرقون ، الجزء الثالث دار المعارف القاهرة سنة ١٩٦٩ ص ، ٩١٥ وما بعدها .

(٣٥) المصدر السابق ص ٩٢١ .

(٣٦) مجلة المقتبس مجلد ٧ ، جزء ٢ ، ص ١٦٢ مقال اوروبة في سورية بقلم (وطني) .

(٣٧) مجلة المشرق جزء ٢٠ ، ١٩٢٢ ص ٨٧١ مقال الارثوذكسية والانقليكانية .

(٣٨) توقفت البطريركية عن الوجود الفعلي ١٢٩١ أي منذ سقوط عكا اخر معقل صليبي .
Tibawi, Part I. P. 187

(٣٩) Stavrou, P. 97

(٤٠) منذ ان احدثت بطريركية القدس في القرن الرابع كان البطريرك ينتخب من بين افراد اخوية القبر المقدس وهي طريقة رهبانية من رجال الدين اليونان يتولون الاشراف على خدمات القبر المقدس ورعاية الحجاج ، وكان البطريرك ينتخب منها بغض النظر عن جنسه ، وبعد الفتح العربي اصبحت القاعدة انتخاب بطاركة من العرب وفي العهد العثماني منح بطريرك الاستانة المسؤولية على بطريركية القدس وجرت العادة بان يعين بطريرك يوناني للقدس تكون اقامته في مجمع البطريرك المسكوني ، ونادرا ماشاهدته القدس في بطريركيتها . Kedourie, P. 81

(٤١) Kedourie, P. 83

(٤٢) Tibawi, Prt 1, P. 170.

(٤٣) Ibid, P. 171

(٤٤) Hopwood, P., the resurrection of our Eastem brethren (Ignatev); Russian and Orthodox arab nationalism in Jerusalem in Ma'oz M., Studies on Palestine during the ottoman Period, Jerusalem 1975, PP. 399-400.

(٤٥) مجلة الهلال ج ٧ مجلد ٢٢ ، ١٩١٤ جرجي زيدان ، فلسطين تاريخها وآثارها وسائر احوالها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية من رحلة الى البلاد ، ص ٥١٥

(٤٦) Stavrou, P. 100.

(٤٧) مجلة المقتبس مقال اوروبة في سورية ، مصدر سابق ، ص ١٩٦ .

(٤٨) خلال جولة اوسبنسكي ١٨٤٤ جرت بعض التطورات التي اثارت استياء روسية بطريقة غير مباشرة وتمثلت في محاولات الارساليات الامريكية والانجليزية تحويل الارثوذكس تدريجيا نحو البروتستنتية وقد عمدت الارسالية الامريكية في بيروت (برئاسة ايلي سميث) تحويل جماعة من الارثوذكس من سكان حاصبيا جنوب لبنان الى البروتستنتية ومنع المتحولين نوعا من الحماية من القنصلية البريطانية في دمشق وبيروت وكذلك قام الاسقف الانقليكاني في القدس (صموئيل غوبات) بنقل جهوده الارسالية من اليهود الى الارثوذكس

Tibowi, A. L., American interest in syria 1800-1901- history of educational literary and religions work (claredon Press, oxford 1966) P.108 f.

Tibowi, Russian cultural Penetration, Ibid. P. 172

(٤٩) نقلا عن رسالة من وزير الخارجية Aberdeen الى القنصل العام في بيروت Hugh-Rose بتاريخ ١٨٤٤/٩/١٩ برقم F.O. 78/575.

(٥٠) اسد رستم ، كنيسة مدينة الله انيتوخس الثالث العظيم، بيروت دون تاريخ ، ص ١٩١ -١٩٢ وردت في المقال المشار اليه سابقا

Tibowi, **Russian Cultural Penetration,** P. 168 .

(٥١) Stavrou, P. 104

(٥٢) نقلا عن التقارير القنصلية البريطانية في القدس ، Tibawi, **Ibid**, P. 174.

(٥٣) Stavrou, P. 101

(٥٤) Tibawi, **Ibid.** P. 173.

(٥٥) Kadourie, PP. 82 - 83

(٥٦) Stavrou, P. 104.

ورد في مذكرات اوسبنسكي قوله « لقد وجدالله مناسبا ان يجعل مني رائدا للتعليم الروحي لشعبين اورثوذكسيين هما العرب والبلغار » .

(٥٧) عزوري ص ٨٦

(٥٨) Hopwood, **The Russian Presence... Ibid,** P. 51

(٥٩) Tibawi, **Russian cultural Penetration...**, part I. P. 174

(٦٠) Hopwood, **Ibid,** P. 53

(٦١) Tibawi, Ibid, P. 175

نقلا عن رسالة من سان بطرسبرغ ١٨٥٨/٣/١٣ من السفير Wodehowe الى وزير الخارجية Malmesbury رقم F.O./65/516 ينقل فيها ترجمة لمقتطفات من تقرير الدوق عن ادارة الاسطول الروسي

(٦٢) Hopwood, Ibid, P. 58

(٦٣) Hopwood, Ibid, P. 68

(٦٤) Loc cit.

(٦٥) Tibawi, Ibid, P. 176

(٦٦) نقلا عن تقرير القنصل البريطاني ١ يناير ١٨٦١ (فن) Finn الى اللورد روسل Russel برقم F.O. 78/588 بان التكاليف المقدرة للمشروع هو مليون جنيه استرليني Ibid; P. 177

(٦٧) Hopwood, Ibid, P. 55

(٦٨) Tibawi, Ibid P. 177

(٦٩) Hopwood, The Resurrection of our Eastern Brethren, Ibid, P. 401.

(٧٠) Tibawi, Ibid P. 178

حتى عام ١٨٧٢ كان انتونين قد اشترى ١٣ موقعا في فلسطين .

(٧١) تصاعد الخلاف بين العرب الارثوذكس والاكليريكية اليونانية بعد عزل المجمع المقدس البطريرك سيريل الذي كان يؤيده العرب ويدعمه الروس ١٨٧٢ ، وينصبين بطريرك جديد (بروكوبيوس Prokopios زاد الاستياء العربي واصبح الموقف العربي مهددا ،حتى استجابت الاستانة للمطالب العربية بوضع دستور جديد للبطريركية يعد بمنح العرب دورا اكبر في انتخاب البطريرك ، مع ذلك فقد استمر الاستياء العربي ودعم القنصل الروسي الاحتجاج العربي الا ان ابجناتيف (الممثل الروسي في الاستانة) احجم عن دعم المطالب العربية المتطرفة

Hopwood, Ibid PP. 401 - 404

(٧٢) المشرق ، مقال ، آخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى ، مصدر سابق ، ص ٥٧٥

(٧٣) دعاة الجامعة السلافية في اوساط المجمع والحكومة في روسية هم الذين نادوا باستخدام الشعور القومي والديني لدى الشعوب السلافية الاخرى من اجل تحريرها واعتبروا ذلك حجر الزاوية لاستيلاء روسية نهائيا على الاستانة وبالتالي تجزئة الدولة العثمانية . وقد عبر دوستوفسكي عن هذه المشاعر في مقال له نشر في آذار ١٨٧٧ تحت عنوان « مرة أخرى حول موضوع الاستانة ، عاجلا او اجلا يجب ان تكون لنا » لخص فيه الدوافع الكامنة وراء التوسع الروسي باتجاه الاستانة ، فحكام روسية بالاضافة الى الاعتبارات الاستراتيجية والاقتصادية يصممون التوسع الروسي ، ينظر دوستوفسكي ، الى مايشبه « الرسالة » لتحقيق وحدة الارثوذكسية المسيحية ، ولم تكن الاستانة الا رمزا للتطلع نحو الاراضي المقدسة .

(٧٤) المشرق ، مقال « اخر مظهر لسياسة روسيةالدينية في الشرق الادنى » ، مصدر سابق ص ٥٧٥

(٧٥) عزوري ص ٨٦

(٧٦) Kedourie, P. 84

(٧٧) هي جمعية انجليزية اسست ١٨٦٥ باسم Palestine Exploration fund. تحت رعاية الملكة بغرض ظاهري هو الدراسة العلمية للاراضي المقدسة وكانت تخفي وراءها اطماعا سياسية .

(٧٨) في ذلك العام قامت الحكومة الروسية بالاحتجاج على الاحتلال البريطاني بمصر نظرا لان الوجود البريطاني يهدد طريقها عبر القناة نحو الشرق الاقصى ويعيق صلاتها الاقتصادية بالشرق العربي . Hopwood, Russian Presence..., P. 96

(٧٩) Persen, P. 39

(٨٠) Ibid, P. 40

وتتوفر بعض اعداد المجموعتين في المجمع الروسي القديم في القدس (المسكوبية) وهو في الجانب المحتل من المدينة

(٨١) Tibawi, Ibid, P. 180.

(٨٢) مجلة المقتبس ، مقال « اوروبة في سورية » ص ١٦٧

(٨٣) اميل الغوري ، فلسطين عبر ستين عاما ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٤

(٨٤) Tibawi, Ibid, 184.

(٨٥) Kedourie, P. 84

(٨٦) نبدي وجهة نظر هذا الجيل في مذكرات خليل السكاكيني (كذا انا يادنيا) القدس ١٩٥٦ . ولم تقتصر ثورته على رجال الدين بل على الطقوس والتقاليد البالية . Kedourie, P. 86

(٨٧) في عام ١٨٩٣ كتب سليم شحادة (ترجمان القنصلية الروسية في بيروت ومدير المدرسة الروسية فيها كتابه « لمحة تاريخية في اخوية القبر المقدس اليونانية » وهو محاولة جريئة لاثبات ان بطريركية القدس لها طابع عربي ، وقد نشر الكتاب بتشجيع روسي ومنعت البطريركية تداوله.
Hopwood, The Resurrection..., Ibid, P. 404

(٨٨) Tibawi, Ibid, P. 311.

(٨٩) في مقال مجلة المشرق « آخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى (المشار له سابقا) ص ٥٨٣ الى انه خلال ازمة البطريركية ١٨٩٨/١٨٩٩ كانت السفارة الروسية لدى الباب العالي تمضد حق الطائفة الارثوذكسية الوطنية في سورية وتضع تحت تصرف قنصل دمشق مبالغ كبيرة في سبيل مساعدة المطارنة الوطنيين في ذلك الانتخاب ، تقوم بذلك لحساب جمعية فلسطين ويشير المقال نفسه ، ص ٥٧٦ - ٥٧٧ الى ان الجمعية قامت بمنح ناظم باشا والي دمشق وسام النسر الابيض عام ١٩٠٠ ويتساءل « هل من علاقة بين هذا الوسام الكبير الممنوح الى والي دمشق ونجاح السياسة الروسية في انتخاب بطريرك عربي الاصل في ١٨٩٩) .

(٩٠) اميل الغوري ، ص ١٥ . بعد اعلان الدستور ، وجد ابناء الطائفة الارثوذكسية في بطريركيةالقدس فرصة لاستئناف النشاط والتشدد في وجوبتحقيق المطالب العربية ، وقدم البطريرك بعض التنازلات الا ان اخوية القبر المقدس قامتبعزله ، وادى ذلك الى قيام ابناء الطائفة بمظاهرات عنيفة ضد الاجانب واحتلوا دار البطريركيةوالكنائس والاديرة وفرضوا عليها اللغة العربية، ووجدت الحركة الارثوذكسية العربية تأييدا صادقا من المسلمين في القدس والاستانة باعتبارها حركة وطنية ، واضطرت السلطات العثمانية الى ايفاد لجنة تحقيق واعيد البطريرك ووعد بانشاء مجلس مختلط .

(٩١) شكا احد رجال الدين اليونان الى القنصل البريطاني في القدس مرا لتأثير الروسي فيفلسطين قائلا بان « نهاية ذلك هو استبعاد الطبقةالدينية اليونانية حراس الاماكن المقدسة واصحاب الحق فيها واستبدال منافسيهم بهم » .
نقلا عن رسالة القنصل البريطاني مور Moore الى السفير في الاستانة White بتاريخ ١٨١٩/٤/٣ رقم F.O./195/1648 وقد وجد ممثل السفارة البريطانية في الاستانة اذار ١٨٩٩ لدى مراجعة الباب العالي ان « الضغط الروسي كان قويا الى حد يصعبمقاومته» من رسالة السفير اوكونور O'conor الىوزير الخارجية سالسبري Salisbury رقم F. O. 78/4992 Tibawi, Ibid, P. 311

(٩٢) Tibawi, Ibid, P. 181
مثال ذلك جهود كابوشتين في مجال تعليم البنات في بيت جالا .

(٩٣) من بين هؤلاء سليم نوفل وهو من دمشق وكانترجمان الارسالية الروسية الاول ١٨٤٨ وبتوجيه من بطريرك انطاكية اصبح مدرس العربية في سان بطرسبرغ ، ثم عين في وزارة الخارجيـــة الروسية بعد حصوله على الجنسية الروسية.فيليب حتى ، تاريخ دراسة المشرقيات في اوروبة الهلال ، مجلد ٣٣ ، ١٩٢٤ – ١٩٢٥ ، ص ٤٠٨

(٩٤) مجلة المشرق مقال « اخر مظهر لسياسةروسيةالدينية في الشرق الادنى » ، (مصدر سابق) ص ٥٧٦

(٩٥) تعزى قلة عدد المدارس في فلسطين الى معارضة الاكليريكية اليونانية ، والى ان البطريركية في القدس قد سعت الى تلبية الحاجات المحلية في مجال التعليم لمواجهة النشاط الروسي .

(٩٦) مجلة المشرق . مقال « اخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » ص ٥٧٦ –٥١٧

(٩٧) Tibawi, Ibid, P. 315
وفي حوار جرى بين مديرة مدرسة البنات الروسية في الناصرة وبين مدير المدرسة الكاثوليكية قالت : « حين لم تكن مدرستنا موجودة اينكان اطفالنا الارثوذكس ؟ الم يكونوا في مدرستك ؟ » .

(٩٨) يصف ميخائيل نعيمة في مذكراته التي كتبها بعد خمسين عاما (سبعون ، بيــروت ١٩٦٢) الترحيب بافتتاح المدرسة الروسية في قريةبسكنتا ، وكان نعيمة قد درس فيها ثم انتقل الى مدرسة الناصرة وتابع دراسته في روسيا ، في المدرسة اللاهوتية في بولتافا – اوكرانيا بيـــن ١٩٠٦ – ١٩١١ قبل ان يهاجر الى امريكا .

(٩٩) المقتطف ، اكتوبر ١٩٠١ ، ص ٩٠١ – ٩٠٤ .

(١٠٠) Tibawi, Ibid, Part II, P. 318

(١٠١) المشرق ، مقال « اخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » (مصدر سابق) ص ٥٧٦

(١٠٢) المصدر نفسه ص ٥٧٧ ، ص ٥٨١ .

(١٠٣) ادى توسع اعمال الجمعية الامبراطورية الى ازدياد تبعاتها المالية ، ففي عام ١٨٨٥ – ١٨٨٦ حين كانت النشاطات لازالت مقتصرة على فلسطين ، انفقت الجمعية ١٣٥٠٠٠ روبل من اجل « دعم الارثوذكسية ووصل هذا المبلغ ٦٥٠٠٠٠ روبل عام ١٨٩٥ – ١٨٩٦ حين بدأ توسيع النشاط في سورية ولبنان . وفي مطلع القرن العشرين عانت الجمعية من تناقص دخلها بسبب عدة ظروف اولها وفاة سكرتيرها الفعال خيتروفو ، ثم اغتيال رئيسها الدوق سرجي خلال ثورة ١٩٠٥ ، والاحداث الداخلية التي اعقبت هزيمة الحرب مع اليابان وثورة ١٩٠٥ ، وقد قدم القيصر قروضا طويلة الاجل للحفاظ على مهام الجمعية وخاصة التعليمية ، كما اخذت الجمعية تعتمد على دعم مالي حكومي منتظم ، المقتبس ، مقال اوروبة في سورية ص ١٦٨ .

(١٠٤) المشرق ، فقال « اخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » (مصدر سابق) ص ٥٨٣ ينقل كاتب المقال تقريرا بعث به القنصل الروسي في دمشق الامير شاكوفسكي الى السفير الروسي في الاستانة في ١٩٠٩/١٢/١٨ يوجه فيه نقدا لنظريات « الجمعية » في التعليم ، ويعزو اسباب الازمة التي تواجهها المدارس الروسية الى « الجمود مدة ٢٥ سنة في عصر كل ما فيه يتحرك ويتحرك بسرعة » .

(١٠٥) كان اكبر مثال على التغيرات التي ادخلت في مناهج التعليم ما حدث في مدرسة الناصرة البنين ، فقد غدت مناهجها تحتوي ، بالاضافة الى التعليم الديني واللغة العربية واليونانية والروسية والتركية الرياضيات والتاريخ والجغرافيا والغناء والموسيقى والتدريب المهني والعلوم واللغتين الانجليزية والفرنسية ، دريك هوبود ، « المجهود التعليمي الروسي في سورية من عام ١٩١٤ » بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، ١١/٢٧ – ١٩٧٨/١٢/٣ .

(١٠٦) بنشوب الحرب توقفت الامدادات المالية عن الجمعية ووضعت جميع مؤسساتها ومدارسها تحت اشراف عثماني ، وامرت السلطات العثمانية جميع الروس بالعودة الى مجمع القدس وسمح للقناصل والرهبان بالمغادرة ، وطبعت الجمعية اخر تقرير لها ١٩١٦ وتلاشت جميع مشاريع الجمعية بتلاشي روسية الارثوذكسية القيصرية .

(١٠٧) بونداريفسكي ، ص ٦٦ ٢

(١٠٨) من بين هؤلاء ، سليم نوفل ١٨٢٨ – ١٩٠٢ (اشير اليه سابقا) وميخائيل يوسف عطايا ١٨٥٢ – ١٩٢٤ وهو من دمشق وعلم العربية في كلية لازاريف وشارك في ترجمة منتخبات مدرسية في الادب العربي وله معجم عربي روسي ، وبندلي جوزي ١٨٧١ – ١٩٤٢ من القدس وتخصص في قازان باللغات السامية والدراسات الشرقية وتولى التدريس في معهد الرهبان ثم في جامعة قازان ثم في باكو وعده المستشرقون الروس من مراجعهم ، ومن مؤلفاته تعليم اللغة الروسية لاولاد العرب ،

وتاج العروس في معرفة لغة الروس . وكلثوم عوده التي كانت مدرسة في المدرسة الروسية في الناصرة وذهبت الى روسيا في عام ١٩١٤ ومنعتها ظروف الحرب من العودة وعملت في روسيا مع كراتشكوفسكي في دفع حركة الاستشراق الروسي . العقيقي ، المستشرقون ، مصدر سابق ، الجزء الثالث ، ص ٩١٥ وما بعدها

(١٠٩) من بين مؤلفي الكتب المدرسية كان خليل بيدس مفتش المدارس الارثوذكسية التابعةلجمعية فلسطين في حمص .

(١١٠) Tibawi, Ibid. P. 317

(١١١) كان اوضح تعبير عن هذا الاعجاب كتاب مصطفى كامل الشمس المشرقة مقدرا جهود اليابان كبلد شرقي للتخلص من تهديد فرضه العالم الغربي ، كما ان الشاعر حافظ ابراهيم استخلص الدرس نفسه من هذه الحرب .

(١١٢) Hopwood, The Russian..., Ibid, PP. 125 - 127

(١١٣) من هؤلاء يعقوب صروف ، اسد رستم ، فارس الخوري ، خليل سعاده .

(١١٤) الف الكاتب الشهير امين الريحاني ملحمته المعروفة « الثورة » بتاثير من الثورة الروسية ١٩٠٥ ، بوندارفسكي ص ٢٦٦

(١١٥) Tibawi, Ibid, P. 320

(١١٦) Hopwood, Ibid, P. 121

(١١٧) هو الاب جوزيف برنيه اليسوعي وكانمتصلابارثوذكس حمص وعكار . المشرق مقال اخر مظهر لسياسة روسية الدينية (مصدر سابق)ص ٥٨٤

(١١٨) Tibawi, Ibid, P. 319

(١١٩) رسالة السفير البريطاني في الاستانه Salisbury ١٨٩٨/١٢/٣ برقم F.O./78/4920

(١٢٠) Tibawi, Ibid, P. 312

(١٢١) Spector, P. 10

(١٢٢) حول قضية سكة حديد بغداد وذيولها : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٩٦ - ص ٢٠٠

(١٢٣) مونداريفسكي ، ص ٢٦٦

(١٢٤) Ibid, P. 11

(١٢٥) Kliemann, P. 33

(١٢٦) Hopwood, Ibid, P. 133

(١٢٧) Ibid, P. 134

(١٢٨) بونداريفسكي ص ٢٦٧ – ٢٦٩ وفي كتاب لينين « الامبريالية اعلى مراحل الاستعمار » جمع كل الحقائق عن المحاولات الانجليزية والالمانية والفرنسية للاستيلاء على الاراضي العربية وكشف عن خصائص السياسة الاستعمارية ،

(١٢٩) Stavrou, P. 91

(١٣٠) Persen, P. 39

(١٣١) Hopwood, Ibid, P. 217

(١٣٢) Ibid, P. 109

(١٣٣) Ibid, P. 100

(١٣٤) Tibawi, Ibid, P. 323

